
أسطورة
رجل الثلوج
14
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

لقد تحركت الشمعة ...

أحس هذا .. وأفهمه .. بل أنا واثق منه .. ، سيقولون إنها هلوسة شيخوخة فى أغوار عقل شيخ أضناه تصلب الشرايين ، لكننى أعرف تمامًا الفارق ما بين الهلوسة والواقع .. لم يزل الحاجز الواهن بين الحالتين بعد ..

لماذا تحركت الشمعة إذن ؟..

لو كنت أصغر سنًا وأكثر حيوية لبحثت عن السبب .. لكنى عجوز منهك لا يملك سوى الذعر .. ولهذا أكتفى بالذعر وأتجاهل الأمر كأنه لم يكن ..!

أنتم تعرفون من أنا ...

أربع عشرة ساعة أقول لكم من أنا .. لكنى لست واثقًا بعد من أنكم جميعًا كنتم جالسين فى المرات السابقة ... ، لهذا أردد الأسطوانة المشروخة :

أنا د. (رفعت إسماعيل) .. أستاذ الدم .. الشيخ .. أعزب .. أمضى حياته فى مطاردة أسرار ما وراء الطبيعة .. واليوم يحكى لكم خبراته المروّعة .. لماذا ؟..

لأن هناك من يجدون أعمق اللذات فى الخوف ..

كنت سأحكى لكم إذن قصتى مع عروس البحر، أو قصتى مع (نوسفيراتو) أو أستكمل لكم قصة (النافاراى).. لكن لا ...

هناك كثيرون منكم أحبوا قصة حارس الكهف ـ العسّاس ـ وهؤلاء بالذات ستروق لهم قصتى مع رجل الثلوج، هناك قراء يحبون الدراما المنزلية، ولهم حكيت أسطورة آكل البشر، ولعنة الفرعون والبيت .. ، وهناك قراء يحبّون جو (الحملات) التى تخرج باحثة عن لغز ما.. ولهؤلاء حكيت أسطورة وحش البحيرة، وحارس الكهف .. وسأحكى لهم قصة اليوم ..

أسمعكم تتثاءبون .. فالقصة معروفة .. طائرة تسقط فوق ثلوج التبت .. والرهبان يحذرون .. ثم يظهر رجل الثلوج الشبيه بقرد عملاق .. و .. و ..

كلا يا رفاق.. ليست القصة هكذا، وإلا لما حكيتها..!..، ألن تكفوا عن إساءة الظن بشيخكم المحنك (رفعت إسماعيل)؟..

ستكون القصة مختلفة تماماً هذه المرة..

وستعرفون السبب بعد قليل..

فقط ابدءوا القراءة الآن..

ولا تقاطعونى..

الجزء الأول

حكاية عن (التبت)

صوت أنفاس لاهثة جشعة .. أنفاس شىء ما، يلصق أنفه بقماش الخيمة على بعد أمتار منه!

١ ـ شيء ما ..!

العاصفة من جديد ...

تتكاثف ندف الثلج الأبيض وكأنها تتعلق بثوب الطبيعة الأسود .. ، وخناجر البرد تخترق نخاع العظام محاولة انتزاعه خارجها ، الرؤية متعذرة .. والحديث لا يفهم ربما بسبب أصوات الرياح ، وربما لأن أكثره يخرج من بين أسنان مطبقة مرتجفة ، وربما لأن عباراته تقال باللغة النرويجية .. وما أصعبها لغة !

لن أضيع الوقت في وصف ملامح الرجال ..

فكل النرويجيين يتشابهون : نفس ذوى اللحى الصفراء المشعثة والعيون الزرقاء ..

والأسوأ هنا أن النرويجيين يتشابهون بشدة حين يرتدون الفراء ومناظير الثلوج ..

لهذا سأكتفى بالقول بأنهم ثلاثة .. وأن أسماءهم هى : (أنسلن) .. و (سيجفريد) و (هانسن) ، وأن أولهم هو أقواهم شخصية ، فلابد أنه القائد ..

المكان : منطقة (منولنج) المتجهة نحو قمة (فرست) ..

الارتفاع : ستة كيلومترات فوق سطح البحر .. لهذا يسمونه سقف العالم ..

درجة الحرارة : يمكنكم تخيلها !..

الزمان : أواخر صيف ١٩٦٧

الحدث : لقد ضلّ هؤلاء السادة طريقهم ولا فخر ..

تعليق على الحدث : من الغريب أنه ليس معهم دليل .. إنهم يعتمدون ـ ككل الأوربيين ـ على البوصلة والخرائط ، ولعمرى هذا خطأ قاتل .. خطأ من النوع الذى يكون الأخير دائمًا ..

لقد استطاع مواطنهم (روالد أمندسن) أن يستكشف القطب الجنوبى ، لكن حسن الحظ ليس قاعدة يُركن إليها ، وليس النجاح حليف الإنسان دائمًا لمجرد أنه نرويجى ..

حتمًا سيلقى هؤلاء السادة حتفهم ..

ولكن دعنا نرى ذلك بأنفسنا ..

* * *

كانوا محتشدين فى الخيمة التى اتخذوها معسكرًا لهم ..

وكانوا قد أشعلوا موقد (البريموس) ليعدوا بعض الشاى ، على حين شرع (هانسن) يقسم بمطواته بعض قطع اللحم المقدد ليأكلوها ، أما (سيجفريد) فقد أشعل غليونه وشرع يراقب حلقات الدخان الرمادى المتصاعدة وفى عينيه شعور بالهباء .. الخواء ..

بدأت قطع الثلج تذوب فى الوعاء الذى وضعوها فيه فتصاعد بخار دافئ محبب للنفس .. فقط من يضلون طريقهم فى الصحارى الجليدية يعرفون قسوة هذا الشعور .. الحاجة لأن تشرب النار .. لأن تشمها .. لأن تحتضنها غير عابئ بشىء سوى الدفء الذى ستبعثه فى أوصالك ، مذيبة كرات الدم المتجمدة ونخاع العظام المثلج .. وعندئذ سيسرى الدم فى عروقك .. وسيكون لسريانه ألم أى ألم .. لكنه ألم لذيذ ..

ـ لنرتب أفكارنا ..

قالها (أنسلن) وهو يفرد الخرائط فى صعوبة لأن القفاز يعوق حركة أنامله .. ، وأردف بعد ثوان :

ـ نحن ضائعون تمامًا .. صحيح أن معنا ما يكفى من المؤن ، لكنها ليست خالدة بحال .. نحن نتحرك .. ولكن إلى أين ؟

نفث (سيجفريد) المزيد من دخان التبغ .. وغمغم :

ـ اطمئن .. إننا متفقون على محاولة العودة ..

ـ ولكن كيف نعود ؟

ـ لقد كنا نصعد .. إذن فالأمر سهل .. كل ما علينا عمله هو أن نهبط ..!

تأمل (أنسلن) ما أمامه من خرائط فى ضيق .. فهو من النوع نافد الصبر الذى لا يقبل الأمر الواقع أبدًا ، ويصعب عليه إدراك حقيقة أنه أحيط به .. ، وقال :

ـ لو أننا فقط استطعنا الوصول إلى نهر (يانجتسى كيانج) .. سيكون هو مفتاح عودتنا إلى عالم الأحياء .. أعرف أنه متجمد لكن مجراه سيقودنا إلى النجاة ..

هرش (هانسن) رأسه الأشقر بطرف المطواة وقذف بشريحة لحم إلى فمه .. وقال وهو يلوكها :

ـ على كل حال .. إن من يهبط لا يمكن أن يضل الطريق .. إننا فى كل الأحوال سنصل إلى أحد الوديان ..

وتناول وعاء الشاى ليصبّ منه فى الأقداح ..

كان ذلك حين دوّى صوت الزئير ..

★ ★ ★

عميق هو ذلك الزئير .. موحش كالموت .. كئيب كالظلام .. مريع كقصص الغيلان التى تحكيها الجدات لأحفادهن ليلًا .. طويل كالأبد ..

امتد الصوت إلى ما لا نهاية ثم بدأ يذوب متهشمًا فوق سفوح الجبال الثلجية .. لم يبق منه سوى فتات متجمد ..

توقف (هانسن) عن المضغ .. وكف (سيجفريد) عن نفث حلقات الدخان .. وتقلصت يدا (أنسلن) على الخريطة ..

ولبضع ثوانٍ بدا وكأن المشهد كادر ثابت من فيلم سينمائى ..

ثم إن (أنسلن) ـ بحكم قوة شخصيته وسرعة بديهته ـ كان أول من استعاد توازنه .. ، فالتفت نحو الآخرين بجدية .. وهمس :

ـ ما هذا ؟

ـ ذئب .. بالتأكيد .. لا يمكن أن يكون سوى ذئب ..

بصق (أنسلن) فى اللهب مزدريًا .. وطوى ما يمسكه من أوراق وتحسس بندقيته فى عصبية :

ـ هراء .. مستحيل أن يكون هذا ذئبًا ..

ـ إذن هو دبّ أو فهد ..

ـ أنتما تعرفان ـ كما أعرف ـ أن هذا الصوت لا يمتّ بصلة لأى حيوان نعرفه ..

ـ ولكن .. ما جدوى أن نعرف ؟

نظر لهما فى شرود .. ثم عاد للجلوس متظاهرًا بالاسترخاء لكن سُدى ..

كان الزئير كذبابة سقطت فى كوب من الحليب فجعلت من شربه أمرًا مستحيلًا .. حتى لو تظاهرت بأنك لا تعبأ بها .. ، لقد شرخ إحساسه بالأمان ولن يلتئم هذا الشرخ ما لم يعرف حقًا حقيقة هذا الزئير ..

تقلصت يداه على قدح الشاى ، وشرع يرشف جرعات كبيرة عصبية ، وعيناه مسافرتان إلى أرض أخرى ..

زوجته (نورا) وطفله (كرست) .. ماذا يفعلان فى هذه اللحظة ؟.. إنه (أغسطس) .. لابد أن (نورا) تزور والديها فى بيتهما الريفى ، ولربما تذكرته فى هذه اللحظة بالذات .. ولربما تمنت له التوفيق متوقعة أنه سيعود لها بأمجاد عظيمة ، بدلًا من أن يقضى نحبه كالفأر بين الثلوج ، إما صريع البرد ، وإما صريع ذلك الوحش الافتراضى الذى لا يدرون كنهه ..

حبيبتى (نورا) .. لكم أتمنى لو كنت فى مكان آخر فى هذه اللحظات .. لكن لأتماسك ولا أدع هذين الغريرين يدركان ما يجول بخلدى وإلا انهارا تمامًا ..

وشعر بقشعريرة تزحف على ظهره ببطء .. تمنى لو أدار ظهره للهب .. لكنه رأى أن هذا التصرف سيبدو سخيفًا أمام مرافقيه ..

بعد دقائق تردد الزئير مرة أخرى ..

لا نجد وصفًا يصفه أكثر مما قلناه فى المرة السابقة ، لكن الحقيقة التى يجب ذكرها .. الحقيقة التى لا ينبغى أن تفارق أذهاننا ، هى أن الزئير كان يقترب !.. لا شك فى ذلك ..

وازداد (أنسلن) توترًا ..

قال (هانسن) وهو ينظر إلى اللهب المتراقص :

ـ البرد والظلام والثلوج اللامتناهية فى الخارج .. بينما فى الداخل الدفء والضوء والأمان .. إن هذا التناقض يثير هلعى ولا أدرى السبب ..

همس (سيجفريد) وهو يسعل :

ـ الحقيقة هى أننى لا أجرؤ على إخراج رأسى من الخيمة ، ولو دفعوا لى ذهب العالم كله ..

ثم التفت نحو (أنسلن) متسائلًا :

ـ فيم شرودك يا (ريّس) ؟

ـ الـ (ياتى) ..!

كلمة واحدة من بين شفتى (أنسلن) لكنها كانت كالقنبلة فى وجهى الرجلين .. ، وللحظة ساد الصمت .. كانا يعرفان جيدًا عمّ يتحدث .. يعرفان جيدًا معنى هذه الكلمة .. وكلاهما يتمنى ألا يكون هذا صحيحًا ..

ـ هراء ..!

قالها (سيجفريد) بنبرة توحى بأنه لا يعنى ما يقول حقًا ..

ـ هل هو حقًا هراء ؟ ..

تساءل (أنسلن) فى ضيق :

ـ تذكرا يا صديقىّ أن هذا هو المكان بعينه الذى شاهد فيه

المستكشف البريطانى (اريك شيسون) ومرافقوه (رجل الثلوج) .. كان ذلك منذ ستة عشر عامًا ..

- وهل تمكن من القبض عليه ؟

- بالطبع لا .. لقد وجد آثار الأقدام الغريبة فأخبره الدليل الذى كان يرافقه - وهو من قبائل (الشيربا) - أن هذه آثار قدمى الـ (ياتى) ، وأصرّ المستكشف البريطانى على اقتفاء أثر هذا المخلوق .. وكان أن وجد اثنين لا واحدًا ، إلا أن الكائنين فرّا بين شقوق الصخور ..

وابتلع ريقه ونظر لأعلى .. وفى رهبة غمغم :

- إن الـ (ياتى) يسيطر على هضبة (التبت) سيطرة مطلقة ، برغم أن أحدًا لم يره إلا مصادفة ..

إذن هم الآن فى دائرة نفوذ الـ (ياتى) ، ومعنى هذا أنهم تحت رحمته ، وأنه لا مفرّ لهم إلا فى التظاهر بأنه غير موجود ، وذلك حتى يتمكنوا من العودة أدراجهم .. هذا - بالطبع - إذا ما كان الزئير زئيره ..

عواء الريح يتزايد فى الخارج ..

الدفء المحبب للنفس ، ورائحة التبغ ، وضوء اللهب المتراقص بالداخل ..

إننا فى أمان .. فى أمان ..

وتمرّ الساعات ..

لا شىء سوى النعاس اللذيذ - كالخدر - يزحف للعيون ، واسترخاء بطىء فى العضلات التى قضت يومًا شاقًا .. ، وتراخ محتم فى الأذهان التى أنهكها البحث عن مخرج .. كأنما العاصفة قد هدأت وهمدت الأمواج بعد طول فوران ..

هل كان ذلك فى الثانية بعد منتصف الليل ؟..

لا يذكر بالضبط ولا يعنيه أن يذكر ..

كان (هانسن) هو الوحيد الذى بقى مفتوح العينين يرمق اللهب ويحصى أنفاس زميليه المنتظمة ..

هو الوحيد الذى لم يتزوج ، ولم تكن له أسرة .. لهذا لم يكن لديه ما يفقده أو يخشاه .. إذن لماذا الخوف ؟.. لماذا يخفق فؤاده هلعًا بهذا الشكل المخزى ؟

تمنى لو أنه حازم قوى الشخصية مثل (أنسلن) .. أو مراقب ساخر لا يبالى بشىء مثل (سيجفريد) .. لما يحبّ الحياة بهذه القوة ؟.. الحياة التى لم تهبه سوى هزائم حتى أنه فكر فى الانتحار مرارًا .. لكنه - فى كل مرة - كان يزداد تشبثًا بها ، ويفطن إلى أنه ما زال يخشى السيارات المندفعة والكلاب المسعورة وحوادث الطائرات ..

وفى مرارة تساءل : هل الشجعان هم أشخاص أقل حبًا للحياة من سواهم ؟



أسوأ ما فى الأمر هو أن الصوت بدا له وكأنه يحاول ألا يوقظ الموجودين !..

مستحيل أن يكون تشبثه بالحياة أقوى من تشبث (أنسلن) الثرى الناجح الذى يملك زوجة حسناء وطفلًا جميلًا يهيمان به ..

إذن ما السرّ ؟..

عزى نفسه بتفسير مرتجل يقوم على أن الأعصاب وراثة .. فكما أن هناك أشخاصًا أطول قامة من سواهم ـ ولا فضل لهم فى ذلك ـ فهناك أشخاص أقوى أعصابًا من سواهم .. وكما كان هناك دومًا الوسيم والقبيح ، فسيظل هناك دومًا الشجاع والجبان ..

كان غارقًا فى هذه التفسيرات حين سمع الصوت ..

صوت أنفاس لاهثة جشعة .. أنفاس شىء ما ، يلصق أنفه بقماش الخيمة على بعد أمتار منه ..!

صوت الاحتكاك .. صوت رقائق الجليد تتهشم ..

ثم يبتعد الصوت اللاهث ..

أسوأ ما فى الأمر هو أن الصوت بدا له وكأنه يحاول ألا يوقظ الموجودين !.. صوت لص يتسلل من نافذة بيت يعرف أن أهله بالداخل !

وتجمد الدم فى عروقه ..

فتح فاه ليصرخ .. ثم رأى أن يهمس بصوت مسموع ، ويد مرتجفة مدها ليهزّ (أنسلن) الذى رحل بعيدًا إلى (النرويج) منذ ساعتين ..

ـ (أنسلن) ..!

ـ هممممم ؟

ـ ثمة شيء .. ما ..!

ـ هممم ؟

ـ أقسم لك !.. استيقظ !.. إنه على بعد مترين !

فتح (أنسلن) عينيه أخيرًا .. كانتا شديدتي الاحمرار مغطيتين بغشاوة من النعاس .. وصاح غير مدرك لما يحدث :

ـ عمَّ تتكلم بالضبط ؟

وهنا ..

تمزق قماش الخيمة وتسرب إليها البرد والجليد والظلام ..

وشيء آخر ..

* * *

٢ ـ نهاية حلم ..

(مصر) فى بدايات خريف ١٩٦٧

كان الاكتئاب صديقًا أعرف ملامحه وآلف نبرات صوته ، وأدمن رائحته ..

هذا الصديق كان موجودًا فى كل مكان .. فى مكان عملى .. فى منزلى .. فى الشارع .. فى سماعة الهاتف .. ، وكنت أتأمل الناس من حولى ، فأجد فى ملامحهم ذات التعبير الذى يوحى بأنهم وجدوا أصدقاء مماثلين ..

كانت حرب (يونيو) قد انتهت بنهايتها المعروفة معلنة انكسار حلم الستينيات الوردى ، والمثقفون منهم من انكسر نهائيًا مع الحلم .. ومنهم من فرّ إلى عالم آخر جغرافى أو خيالى ، يحاول أن ينسى فيه مرارة الهزيمة ، بينما يردد صوت (عبد الحليم) فى مرارة (عدّى النهار) ..

إنها أيام لا تُنسى ..

على الصعيد الشخصى كان هناك شرخ أكثر مرارة وقسوة فى جدار مستقبلى ، هذا الشرخ هو علاقتى بـ (هويدا) ..

كانت (هويدا) تتغير ..

لا أدرى متى ولا كيف ولماذا يحدث هذا ، لكنه يحدث ..

وعندئذ يسقط حائط (السيلوفان) الوردى الذى يغطى العينين ، وتتضح أشياء كثيرة وتولد أشياء أكثر ..

عندئذ تبدأ المشاكسات فالمشاجرات ..

وعندئذ تتحول عبارات المزاح الخشن - التى كانت تجلب ضحكات الدلال قديمًا - إلى إهانات لا تدرى هى كيف سمحت لنفسى بقولها ..

إن الحب هو (فيلتر) يستخلص من الحياة أفضل وأجمل ما فيها .. فإذا أصاب الـ (فيلتر) العطب ، أو تشبّع أكثر من اللازم ، لم يبق فى الحياة سوى كل ما هو قبيح ومرير وقاس ..

حرب مستمرة ..

هكذا صارت حياتى حربًا مستمرة ..

مشادات فمحاولات إصلاح تزيد الطين بلّه .. فمحاولات إصلاح لمحاولات الإصلاح .. ثم أملّ كل شىء وأعلن رأيى فى أن كل هذا سخف .. ثم أبدأ محاولات إصلاح جديدة لأنها لا تفهم كيف جرؤت على أن أقول إن كل هذا سخف ..!

هل تفهم معنى عبارة (التورط الأمريكى فى المستنقع الفيتنامى) ؟..

هذا هو حالى وقتها .. تورط فى مستنقع النفس الأنثوية المتشابكة .. وكلما حاولت التحرر غصت أكثر فأكثر ..

لماذا يا (هويدا) تصرّين على هدم كل شىء ؟.. كنت قد بدأت أميل إليك ..

* * *

سأظل أذكر من تلك الأيام حالة الاكتئاب الحادة التى داهمتنى .. والصداع المزمن فى مؤخرة رأسى .. وإدمانى القهوة إلى حدّ فلكى ..

هزيمة على الصعيد القومى ، والصعيد الشخصى ، والصعيد العاطفى ..

فيالها من أيام !

كنت فى أمسّ الحاجة إلى الابتعاد عن كل هذا ..

كنت بحاجة إلى أسطورة جديدة ..

* * *

يذكر القارئ أن آخر عهدى بالأساطير كان فى الولايات المتحدة، مع مأساة الاشتعال الذاتى وقلادة (شاكال) إياها ..

كما يذكر القارئ مغامرتى التى لم أستكملها بعد مع (هن - تشو - كان) كاهن (النافاراى) المنبوذ بعيدًا عن عالمه وزمنه .. (كنت قد وعدتكم باستكمال تلك القصة ، لكن الوقت لا يسعفنى ، لذا أرجو أن تفسحوا لى

صدوركم قليلًا) ، سيعرف القارئ بعد استكمال القصة أن (هن ـ تشو ـ كان) قد نزح إلى إحدى ضواحي القاهرة الهادئة ـ (المرج) بالتحديد ـ ليعيش هناك ، وأنه يعمل مترجمًا فى سفارة (الصين الشعبية) ، الأمر الذى ساعده على ألا يبدو غريبًا أو متفردًا ..

شعرت بحنين شديد إلى هذا الفتى الصموت المهذب ..

مجرد مرآه كان يحملنى إلى بعيد .. إلى الجبال الجليدية وأديرة (التبت) والعواصف وروائح البخور .. وذكريات (جينغ ـ تشا) الداهية ، وأساليب (النافاراى) العجيبة فى التفادى ..

لهذا أدرت قرص الهاتف فى شغف ..

سمعت الرنين المتقطع .. ثم صوته ذا النبرة الأجنبية المحببة يتساءل عمن هنالك ..

ذكرته بنفسى ودعوته إلى أن يتناول العشاء فى شقتى ، فوافق فى مرح ، وقد أكد أنه غير مرتبط بمواعيد ..

وبدأت إعداد وجبة العشاء ، المكونة من الخبز والجبن وبعض اللبن الرائب ، كنت قد نسيته فى الثلاجة ، وأعرف أن الفتى سيرحب به .. ثم إننى جلست فى الصالة أستمتع بمشاهدة جهاز التليفزيون الذى ابتعته حديثًا .. ولكن ..

كل البرامج تذكرنى بما كان ، وبما يجب أن أنساه ..

أطفأت هذا الجهاز الجهنمى وشرعت أطالع صحيفة اليوم التى لم أكن قد قرأتها بعد ..

مررت بعينى على العناوين ، ثم أخبار العالم الطريفة التى يكون مكانها دائمًا الصفحة الثانية من الجريدة .. وهنا وجدت عنوانًا أثار اهتمامى :

السلطات الصينية تعلن إنهاء البحث

عن المستكشفين النرويجيين الثلاثة (*)

شنجهاى ـ وكالات الأنباء :

صرح مصدر مسئول بالحكومة الصينية أن السلطات كفت عن إرسال الحملات بغية البحث عن المستكشفين النرويجيين الثلاثة الذين فقدوا فى (التبت) فى أغسطس الماضى فى أثناء محاولتهم الوصول لقمة (إفرست) ..

والجدير بالذكر أن آخر آثار تركها المستكشفون هى خيمة ممزقة وآثار دماء وآثار قدمين كبيرتين مما أعاد للأذهان أسطورة (الياتى) أو رجل الثلوج المخيف .. على أن السلطات الصينية تنفى القصة بشدة وتعتقد أن المستكشفين قد تجمدوا فى مكان ما من الجبل نتيجة لإصرارهم على عدم اصطحاب دليل من سكان (التبت) .

(*) احتلت (الصين) بلاد (التبت) عام ١٩٥١ ، وطردت منها (الدلاى لاما) وهدمت أكثر الأديرة .. ولقد فر هذا الأخير إلى (الهند) لكن التبتيين مازالوا يأملون فى عودته .

(التبت) !.. يالها من مصادفة !..

ولكن هل هناك حقًا من يبالون بهذه السخافات عن رجل الثلوج الذى قتلته القصص المصورة قتلًا ؟.. ثم متى ينتهى هذا الجنون الذى يدفع بالناس إلى الانتحار فوق الجبال العالية ؟.. لقد وصلوا لقمة (إفرست) مرارًا من قبل ، فأى جديد يمكن أن تضيفه حملة أخرى ؟

لم أجد تفسيرًا لكل هذا سوى غريزة الموت التى تحدث عنها (فرويد) ، والتى تدفع الناس للانتحار دونما سبب ..

وهكذا شرعت أنسق الشقة والمائدة بانتظار (هن - تشو - كان) حين يجىء ..

دقّ جرس الباب ففتحته .. كان هو ، وقد ارتدى حلّة أنيقة ومنظارًا شمسيًا . فبدا كأحد رجال السلك الدبلوماسى الآسيويين .. لقد تغيّر كثيرًا جدًا .. لكنه ظل هو ..

- لقد صرت معاصرًا أكثر من اللازم يا (هن - تشو - كان) !

- وأنت تخلفت أكثر من اللازم !

عليك اللعنة !.. أهذه هى إجادتك للغة العربية ؟!..

وجهت له لكمة مداعبة فى صدره لكنه تراجع - بسرعة البرق - إلى الوراء فوجدت نفسى ألكم الهواء .. منَ المستحيل ضرب هذا الفتى الذى لم ينس بعد فنّ البعوضة فى التفادى والمراوغة ..

ثم إنه انحنى فى أدب لا أثر للسخرية فيه ، وخلع منظاره قائلًا :

- لو كنت ضايقتك .. معذرة .. إنها (دوابا) !

- (دوابا) ؟.. أعتقد أنك تقصد (دعابة) .. لا عليك .. هلم يا فتى ومرحبًا بك فى دارك القديمة !

دخل الشقة وشرع يعانق الأثاث والأركان بعينيه .. ثم جلس على مائدة الطعام وأنا معه نأكل ونثرثر عن كل شىء ..

- لم أرد الاتصال بك .

قال وهو يلوك الخبز : لأنى توقعت أنك حزين بسبب الأحداث ..

- لقد صار الحزن مهنتى ..

- وما زلت تدخن بإفراط ؟

- أحاول الإقلاع هذه الأيام بالذات ، فلم تعد رئتاى على ما يرام ..

انتهى العشاء فنهضت أعد لنفسى قدحًا من الشاى - فالكاهن الأخير لا يشربه - وعدت له لأجده منهمكًا فى تصفح الجريدة التى كنت أقرؤها .. ويحرك شفتيه جاهدًا مع العناوين ..

جلست بجواره ورشفت رشفة .. ثم سألته :

- مازلت لا تقرأ العربية ؟

هزّ رأسه فى تعاسة وواصل تأمل الجريدة :

ـ صعبة جدًا هى لغتكم المكتوبة .. إننى قد وصلت قمة الإجادة للغة المنطوقة .. أما بالنسبة للحروف .. فلم أزل أجد مشكلة ، دعك من أن لغتنا تعتمد كتابتها على الكلمات الكاملة لا الحروف .. ثم إنها تقرأ من أسفل لأعلى وليس من اليمين لليسار ..

فتحت له الصفحة الثانية وأشرت إلى الخبر الذى قرأته منذ برهة .. وسألته :

ـ هذا الخبر خاص بوطنك .. هل تستطيع أن تفهم ما يقول ؟

ضيّق عينيه وشرع يمرّر إصبعه على الحروف فى حيرة ويحرك شفتيه أكثر من اللازم :

ـ الـ .. السلطات .. الصيـ .. الصينية .. تـ .. تعلن ..

ثم نظر فى استسلام متوسلًا أن أقرأ أنا الخبر عنه .. فتناولت الجريدة وطالعت له ما هنالك .. فما أن وصلت إلى كلمة (يانى) حتى اتسعت عيناه وارتجفت شفتاه وتوتر جسده كالمنجنيق المعدّ للانطلاق .. وانتظر حتى أنهيت كلامى ثم إنه نهض كالملسوع إلى الهاتف ..

ـ (هن ـ تشو ـ كان) .. ماذا دهاك ؟

لم يهتم كثيرًا أو قليلًا بالإجابة .. رفع السماعة وقربها من فيه وبدأ يتحدث حديثًا طويلًا لم أفهم منه حرفًا ، مع طرف آخر .. واضح أن هذا الحديث باللغة الصينية أو شىء مشابه ..

فما أن انتهى حتى وضع سماعة الهاتف (الذى تعلم استعماله من فترة وجيزة جدًا) ووجهه ممتقع وعيناه حائرتان .. فسألته :

ـ ماذا هناك بالضبط ؟

ـ لقد عاد الـ (مى ـ جى) !!

* * *

٣ ـ أسطورة المى ـ جى ..

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق .. عندئذ يبدأ فجر (النافاراى) ..

⋆ ⋆ ⋆

الثلوج من جديد ..

الوقت ملائم تمامًا للجلوس حول النيران وتأمل تمثال (جوتاما) المتلألئ فى بحر الذهب .. وسماع قصص الأخ (لين ـ بياو) الساحرة عن البلدان البعيدة التى تحرق أشعة الشمس الساطعة فيها ظهور حيوانات غريبة لها أنوف طويلة ، وحيوانات طويلة الجسد مدرعة الظهر حادة الأنياب تسبح فى أنهار غير متجمدة ..

نعم الوقت ملائم لكل هذا ..

لكن الأخ (ميانج) يدنو منك وعلى وجهه علامات التوتر :

ـ أيتها الزهرة الزرقاء .. إننى أشعر به قريبًا ..

عم تتحدث أيها الأخ (ميانج) ؟

ـ عن الـ (مى ـ جى) .. إن الليلة ليلته وهو يريد منا أن نشاركه فيها ..

عندئذ تفغر فاك فى حيرة .. سنواتك الأربع عشرة لم تزل غير قادرة على إغلاق فيك كلما استبد بك عدم الفهم :

ـ وما هو الـ (مى ـ جى) يا أخ (ميانج) ؟

نظرة مغلقة شاعت فى وجه الكاهن .. ولم يعلق بشىء .. إلا أنه استعد كأفضل ما يكون الاستعداد ..

ـ أنت (نافاراى) .. ولهذا يجب أن تعرف ما يعرفه (النافاراى) وتكتم أسرارك عمن ليسوا (نافاراى) ..

⋆ ⋆ ⋆

إن من قرءوا منكم أسطورة الكاهن الأخير يدركون ـ ولا شك ـ هذا الجو المألوف .. الجو الذى نشأ فيه (هن ـ تشو ـ كان) منذ خمسة قرون ، وعلى بعد مئات الأميال فى (التبت) ، وذلك بالطبع قبل أن تنجح حيلة (شانكين) فى حمله عبر الزمان والمكان إلى (القاهرة) فى القرن العشرين ..

إن (هن ـ تشو ـ كان) لم يزل يذكر خبرات صباه ..

تلك الخبرات التى تقادم بها الزمن أكثر من خمسمائة عام ..!

فبالنسبة لـ (هن ـ تشو ـ كان) يظل ما حدث فى طفولته كأنما حدث بالأمس .. وتظل الهوة السحيقة بين العصرين لا وجود لها فى ذهنه ..

⋆ ⋆ ⋆

في صمت يمشى (هن ـ تشو ـ كان) خلف الأخ (ميانج) فوق الثلوج ، والظلام الدامس يغلف الكون بالغموض والذعر ..

تدوّى الصرخة .. أو لعله الزئير ..

عميق كالآبار التى تلقى فيها أرواح الخطاة فى الجحيم .. كئيب كالموت .. أليم كانتزاع إصبع من أصابعك ..

ثم يتلاشى عبر قمم الجبال الثلجية ..

يرتجف الفتى ويطبق بأنامله التى يغطيها القفاز على عضد الأخ (ميانج) ، لكن هذا يهدئ من روعه ..

ـ صه !.. إنه يخبرنا بوجوده !

كانا يحملان كيسين كبيرين من الفراء ، وقد علم الفتى أن الأخ (ميانج) اختار الفراء ليحفظ حرارة محتوياته ..

آثار أقدامهما على الثلوج مختلطة بآثار أخرى تختلف حجمًا وعمقًا .. لكنها تقترب من نفس الاتجاه الذى هما فيه يمشيان ..

لم يسأل لأنه أدرك أن هذه الآثار تخصّ الشىء الذى يقصدانه ..

تزداد العاصفة .. يتعثر الفتى أكثر من مرة ..

وفى كل كبوة ينهض ليجد الأخ (ميانج) قد سبقه

بعشرة أمتار ، دون أن ينظر للوراء .. فينهض ويهرع ليلحق به لأنه حين تبدأ العاصفة فوق (الهيملايا) ، يكون مدى الرؤية خمسة عشر مترًا لا غير ، وليس الضياع فى هذه الأصقاع مستحبًا كما لا بد أنك توافقنا .. ، ويصرخ الفتى بين عويل الرياح :

ـ أخ (ميانج) !.. انتظر !

ـ الـ (مى ـ جى) لا ينتظر ..

ـ خطواتك واسعة ..

ـ وقتى أضيق !

ـ البرد قارس ..

ـ كذا أقدام الموتى !

وهنا يتردد الزئير من جديد .. وكأنما ضايقه شىء من التأخير فى ميعاد مرتقب ينتظره بفارغ الصبر ..

والآن يرتقى الأخ (ميانج) درجات جليدية عشوائية تصعد ـ فيما يبدو ـ إلى كهف تلتمع الثلوج المحيطة بمدخله ، وهنا فقط يتوقف لينظر إلى الفتى .. صوت الرياح يصمّ الآذان ، لكن صوت همسه الشبيه بالفحيح يخترق هذه الجلبة إلى أذنى الفتى :

ـ تذكر ما أقول لك .. لا أسئلة .. لا تنظر إلى أى شىء .. لا تبد ذعرًا .. إننا ضيوفهم ، والضيف مرغوب فيه ما لم يبد فضولًا زائدًا ..

ابتلع الفتى ريقه وهزّ رأسه أن اعتمد علىّ ..

وواصلا الصعود إلى مدخل الكهف ..

وأمام الفتحة المظلمة صاح الأخ (ميانج) وهو يرفع يده اليمنى مبسوطة .. صاح كأنما يقرئ شيئًا ما السلام ، ولم يكن الفتى يعرف هذه اللغة (لكنه عرف فيما بعد أنها إحدى لهجات قبائل [الأمادواس] التبتية) ..

ثم إن الأخ (ميانج) انحنى فى رقة وتبجيل ، وأشار للفتى من طرف خفى أن يحذو حذوه ..

ودخلا إلى الكهف الجليدى المظلم ..

فى البدء كانت الرائحة .. الرائحة الثقيلة الخانقة كالموت ذاته ..

ثم كان البريق .. البريق الملتمع كجذوات من اللهب متناثرة فى ظلام الكهف ، ولم يلبث الفتى المذعور أن أدرك أن هذا هو بريق عشرات العيون النارية ، لمخلوقات تملأ المكان وتحيط بهما !

لم ير الفتى تفاصيلها لكنه تخيلها ..

لا تنظر إلى أى شىء .. لا تبدِ ذعرًا ..

ثم كان الخوار .. الخوار المترقب الغاضب المنذر بالويل ..



والآن يرتقى الأخ (ميانج) درجات جليدية عشوائية تصعد ـــ فيما يبدو ـــ إلى كهف تلتمع الثلوج المحيطة بمدخله ..

لكنه تماسك .. إن الأخ (ميانج) يعرف ما يفعله دون شك .. ثم إنه (نافاراى) .. والـ (نافاراى) لا يفقد أعصابه أبدًا ..

والآن ينحنى الأخ (ميانج) ليفرغ ما بجعبته على أرض الكهف الجليدية .. ويمدّ الفتى عنقه ليرى أفضل ..

عشرات الجثث لأرانب وثعالب تنسكب من الجوالين على الأرض ..

لم يكن الفتى قد رأى مشهدًا مماثلًا من قبل ، ولم يكن الـ (نافاراى) يأكلون الحيوانات أو يقتلونها ، لهذا أصابته الدهشة ..

أما الأكثر غرابة فهو أن الأخ (ميانج) أخرج من حزامه قارورة ضخمة غريبة الشكل ، ومدّ بها يده إلى أعلى فى حركة إغراء للشاربين ، ثم وضعها على الجليد وسط جثث الحيوانات ..

ومرة أخرى رفع يده اليمنى مرددًا :

ـ يا هاتشو أوزوم مى ـ جى !

تلك العبارة التى فهم الفتى معناها بعد أيام .. (لقد بررت بوعدى أيها الـ (مى ـ جى) ومعنى هذا انتهاء الزيارة ..

لكن الوقت لم يحن لهذا بعد ..

* * *

إن (الياتى) يسيطر على هضبة (التبت) سيطرة مطلقة برغم أن أحدًا لم يره إلا مصادفة ..

* * *

شعر الفتى بأنفاس حارة كريهة تصطدم بجانب وجهه الأيسر كأنها تحرق جلده .. ابتلع ريقه وتماسك ..

ثم شعر بشىء كالأصابع الغليظة يتحرك فوق شعره .. يجذب الضفيرة المميزة لرجال الـ (نافاراى) برفق .. ثم ينحدر نحو مؤخر عنقه مستكشفًا أو مداعبًا لا يدرى بالضبط ..

لم يجرؤ على إدارة رأسه حتى لا يستفزه من ناحية .. وحتى لا يرى ذلك الوجه المريع من ناحية أخرى .. الوجه الذى كان يتوقع بشاعته ودمامته ، خاصة على بعد سنتيمترات قليلة ..

ثم بدأ يسمع الحوار يتعالى ببطء .. ببطء ..

لن أخاف .. لن أخاف .. سأظل ثابتًا ..

نظر إلى الأخ (ميانج) ـ الذى يعرف دائمًا ما يفعله ـ فأثار قلقه تعبير التوجس والذعر المرتسم على وجهه .. إذن فالأخ (ميانج) ليس واثقًا من نفسه إلى هذا الحد ..

إذن فهناك شىء ما خطأ ..!

لم تكن هذه الحركة الأخيرة فى الحسبان كما هو واضح ..

الخوار يتعالى ..

عندئذ فقط انتابه الهلع البرئ غير القابل للتهدئة ..

عندئذ فقط تراجع منتفضًا إلى الوراء وصرخ :

ـ أخ (ميانج) !.. افعل شيئًا !

وهنا فتح باب الجحيم ..

خرجت ثعابين الغضب من جحورها ، ورياح الحنق من كهوفها .. وتعالى الزئير من عشرات الحناجر .. وصار المكان كله بحرًا من الصراخ والهياج ، كأنما كانوا ينتظرون هذه الحركة الدالة على نية العدوان ..

تشبث الفتى بجسد الأخ (ميانج) ولفَّ ذراعيه حول خصره ودفن رأسه فى صدره وشرع يجهش بالبكاء ..

لم يكن يرى شيئًا من حوله فى الظلام لكنه كان يشعر بهم جميعًا ، وكانوا غاضبين ، وأحس بيد خشنة تحاول انتزاعه من الأخ (ميانج) فلم يزدد الأخير إلا تشبثًا به ..

ووقف (ميانج) باسطًا ذراعه اليمنى مرددًا كلمات ما .. محاولًا ـ حتمًا ـ تهدئة الجمع الثائر ..

وأخيرًا تلاشى الصراخ ، وساد جو من الترقب المشوب بالحذر من الآدميين والمخلوقات المحيطة بهما ..

صامتًا أمسك الأخ (ميانج) كف الفتى أن اتبعنى ..

ودونما كلمة ـ ودون أن يدير أحدهما عينيه نحو المخرج ـ تراجعا بظهريهما .. ببطء .. ببطء ..

الهواء البارد ورقائق الجليد تصطدم بوجهيهما ..

لكن الفتى كان يشعر بالخلاص .. بنشوة النجاة .. ولم يتوقع قط أن يتبعهما واحد من هذه الكائنات ، لأنه أدرك أن هذه هى نهاية الموقف ..

وبعد خطوات عدة التفت إلى الأخ (ميانج) متسائلًا ..

لكن هذا ربّت على كتفه فى ثقة وإعزاز :

ـ كان هذا اختبارًا لثباتك أيتها (الزهرة الزرقاء) .. وقد نجحت فيه ..

ـ لكنى أظهرت الرعب ..

ـ لأننى أظهرت الرعب .. والرعب كالطاعون .. ما إن يصاب به واحد حتى يعمّ المدينة كلها ..

ولعينى الكاهن الأخير البرينتين بدا الجبل الجليدى الموحش لغزًا مملوءًا بعلامات الاستفهام .. لكنه لغز من الخير ألا يقترب منه كثيرًا ..

وتكررت رحلات الأخ (ميانج) إلى الكهف ..

لكنه لم يصطحب معه (هن ـ تشو ـ كان) فى تلك الرحلات .. بل اصطحب معه فتيانًا آخرين منهم (جينغ ـ تشا) خصم الفتى العتيد ..

وأدرك (هن ـ تشو ـ كان) أن الأخ (ميانج) يحاول تعويد شباب (النافاراى) على هذه الخبرة المروعة ، كما أنه يختبر ثباتهم وثقتهم بأنفسهم ..

لكن الأسئلة لم تُحلّ بعد ..

ما هم هؤلاء ـ أو هذا ـ (المى ـ جى) ؟.. ومن أين جاءوا ؟

لماذا لم يذع سرهم فى الدير ؟.. ولماذا يتحمل (ميانج) مسئولية إطعامهم ؟

....

وتوجه بهذه الأسئلة إلى الأخ (ميانج) :

فعرف أشياء كثيرة ..

- من هم (المى ـ جى ؟) :

لا أحد يعرف يقينًا ..

- من أين جاءوا ؟ :

لا أحد يعرف يقينًا ..

- لماذا لم يذع سرهم فى الدير ؟ :

لا أحد يعرف يقينًا ..

- لماذا يتحمل (ميانج) مسئولية إطعامهم ؟ :

لأنه لابد من واحد يفعل ذلك .. ألا توافقنى ؟..

....

كانت إجابات مفحمة ، ولقد قضى الفتى شهورًا يلوك غيظه وينتظر ويتبادل الهمسات مع الرفاق ..

إلى أن اجتاز الاختبارات التى تؤهله لدراسة

(السارايانا) حين أراه الكاهن الأعظم كتاب (شوكارا) وأخبره أنه سرّ أسرار الـ (نافاراى) ..

عندئذ فقط صار من حقه إذا سأل أن يتلقى إجابات .. وهذه الإجابات واضحة لا تمت بصلة لأسلوب الأخ (ميانج) الحكيم المتحذلق الملىء بالغموض ..

ولقد عرف الفتى أن الـ (مى ـ جى) هم كائنات غريبة تمت للإنسان بصلة شبه ، تعيش فى جبال المنطقة وكهوفها .. وأنها ـ فى الغالب ـ مسالمة إلا إذا تم استفزازها أو تجويعها ..

عندئذ لا داعى للحديث عن خطورتها حين تهاجم القرى وتخطف النساء والأطفال ..

ولذلك يقوم الأخ (ميانج) بزيارات تطوعية إلى الكهوف التى تعيش فيها هذه الكائنات ، ليقدم لها نوعًا من القرابين أو الإتاوات مكونة من الحيوانات الصغيرة التى تنتزع الكائنات أحشاءها قبل أكلها ..

كما يقدم لها شرابًا تم إعداده بعناية يكفل تهدئة غضبها لفترة شهرين أو ثلاثة مما يقى القرى التبتية القريبة من خطر جوعها وثوراتها . وقد أدمن الـ (مى ـ جى) هذا الشراب ..

وعرف (هن - تشو - كان) أن طريقة إعداد هذا الشراب مذكورة فى كتاب الـ (شوكارا) الذى هو بمثابة مرجع الـ (نافاراى) الأساسى فى شئون حياتهم ..

عرف كذلك أن هناك جماجم بل مومياوات كاملة للـ (مى - جى) فى أديرة (التبت) ، لكنها سرٌ لا يذاع بسبب إيمانهم بأن لهذه الكائنات قوى شيطانية ، وليس العبث بها مستحبًا ..

أما لماذا يتم الحوار معها بلهجة قبائل (الأمادواس) فلأن هذه القبائل البدوية المحاربة ذات باع طويل فى معرفة الـ (مى - جى) .. وهم يفترضون أن هذه الكائنات تفهم هذه اللهجة إلى حد ما ..

كان السؤال الأخير الذى سأله الكاهن الأخير للأخ (ميانج) مباشرًا أكثر من اللازم :

- منذ متى هم هنا ؟

- قبل أن يولد أجداد أجدادنا ..

- ومن أين جاءوا ..

ببطء ارتفع إصبع الأخ (ميانج) فتابعته عينا الفتى يتجه لأعلى .. لأعلى .. لأعلى .. حتى أشار إلى النجوم المتلألئة فى السماء المظلمة .. وبرفق غمغم :

- .. من هناك ؟!

* * *

٤ - الرجل الذى يعرف أكثر ..

كنا قد عُدنا إلى لحظتنا الحالية .. العام ١٩٦٧ .. بداية الخريف .. شقتى بالدقى .. الكاهن الأخير يضع سماعة الهاتف ووجهه مُمتقع ..

- ماذا دهاك بالضبط ؟

- قد عاد الـ (مى - جى) !

هرشت صلعتى فى حيرة ، وخلعت حذائى لأتمكن من تمديد ساقىَّ على الأريكة المقابلة .. وطويت الجريدة لأضعها جانبًا ..

- لحظة يا بنى .. هل وردت كلمة هذا الـ (ميكى) فيما قرأته لك ؟ أم أن هذا معنى لفظة (ياتى) بلغتكم ؟

فى كبرياء هزَّ شعره .. وصحح لى اللفظ :

- (مى - جى) لا (ميكى) .. وهو اسم الـ (ياتى) بالمنغولية .. (ميتى) .. (كانج ماى) .. كلها تعنى ذات الشىء ..

- وهل يعنى هذا أنه قد رحل ليعود ؟

- لقد كان دائمًا هناك لكنى نسيته ..

- ومن كنت تكلم بالهاتف ؟

نظر للهاتف فى شرود .. وغمغم :

- السفارة الصينية .. طلبت منهم معلومات عن هذه القصة أكثر مما جاء بجريدتكم ..

وكأنما كان الهاتف ينتظر هذه الإشارة ؛ انفجر يصرخ مناديًا من ينقذه من فيضان الأصوات المحتشد به .. رفع (هن - تشو - كان) السماعة ، وبدأ حديثًا طويلًا مع الطرف الآخر يقطعه بهمهمات موافقة أو استفسار .. ثم أشار لى طالبًا قلمًا ، فناولته إياه ليكتب شيئًا ما على طرف الجريدة .. ووضع السماعة قائلًا :

- لقد أعطانى عنوان أستاذ نرويجى موجود حاليًا فى (جمهورية الصين الشعبية) .. ويقول إنه يحاول مع فريق عمل من الصينيين البحث عن مواطنيه ، وطلب منى أن أتصل به إذا كنت أرغب فى معرفة أكثر ..

ثم سألنى وهو يمسك بـ (بلوك نوت) وجده على المكتب :

- هل تجيد النرويجية ؟!

- ليس أسوأ من إجادتك للسواحلية .

- إذن خذ واكتب بالإنجليزية .. قل له إننى نشأت فى (التبت) وأعرف الكثير مما يهمه أمره بخصوص

الـ (يائى) .. قل له أن يحاول منحى فرصة ، لأن اعتبارى نصابًا أو هاوى شهرة لن يفيده كثيرًا .. إن سعة الأفق هى ما يحتاج إليه .. قل له كذلك أن يحدد أسلوب ووقت اللقاء إذا رغب فيه ..

- اسمعنى يا فتى .. أنا لا أفهم ..

- اكتب فقط ما أقول لك ..

ثم إنه تناول منى مظروفًا وخطّ عليه بقلمه بعض الكلمات بتلك النقوش الصينية التى رسمها على حافة الجريدة ، ثم ناولنى إياه طالبًا منى أن أرسله له على وجه السرعة إلى (الصين) ..

يا لك من معتوه !

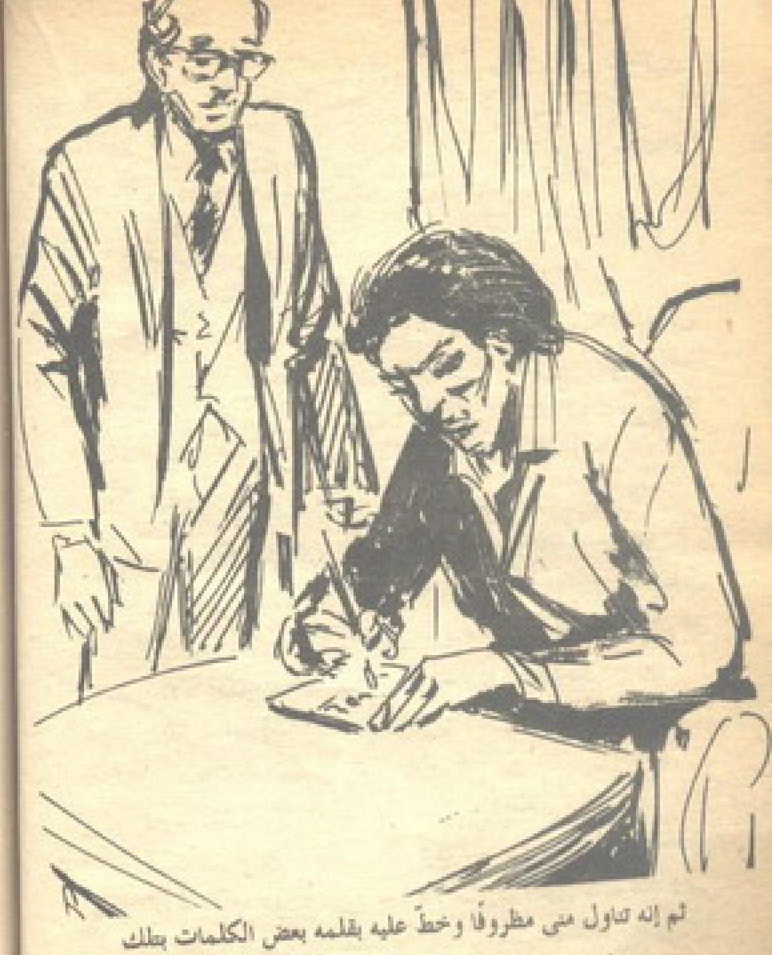
لو أن هذا الخطاب العجيب وصل - ومن المستحيل أن يصل - فلن يحدث هذا قبل ستة شهور على الأقل ، يكون الأخ (مى - جى) قد افترس فيها الأستاذ النرويجى ، أو على الأقل يكون هذا الأخير قد عاد لوطنه بسلامة الله ..!

خطاب للصين ؟!.. هل سمع أحد عن شىء كهذا ؟

* * *

لكن الفتى كان أكثر حظًا مما توقعت ..

فبعد شهر وثمانية أيام ، وجدت فى صندوق خطاباتى مظروفًا عليه طابع بريد يمثل (ماو - تسى - تونج) فى استعراض عسكرى بمناسبة ما .. فلم أتمالك نفسى أن



ثم إنه تناول منى مظروفًا وخطّ عليه بقلمه بعض الكلمات بتلك النقوش الصينية التى رسمها على حافة الجريدة ..

فتحت المظروف وقلبى يخفق كالطبل ، غير عابئ بقواعد اللياقة التى تحتم ألا يفتح الخطاب سوى المرسل إليه .. إن الفتى لا يعرف هذه القواعد الحضارية ، وعلى كل حال هو سيعطينى الخطاب لأترجمه له حتمًا لأنه لا يفهم حرفًا من اللغة الإنجليزية ..

كان الخطاب يقول :

عزيزى مستر (هن ـ تشو ـ كان) :

وصلنى خطابك فى الأسابيع الأخيرة من إقامتى فى بلدكم الجميل العريق .. وللأسف بعد حملة فاشلة بحثًا عن مستكشفينا الذين فقدناهم فى منطقة (منولنج) . وثمة أشياء فى خطابك استرعت اهتمامى بالإضافة إلى لغتك الإنجليزية الراقية (!!) ..

وإن كنت أتساءل عن سبب عدم استخدامك للقنوات الدبلوماسية العادية ما دمت تعمل فى سفارة بلدكم فى (مصر) .. أعتقد وأنت توافقنى أن الاتصال بهذه الوسائل سيكون أسرع وأفضل .

على كل حال يسعدنى أن أعرف ما تستطيع إضافته إلى هذه المأساة ، وبما أننى عائد إلى (النرويج) خلال أيام ؛ أرجو أن تراسلنى على العنوان التالى (..........) .

بإخلاصى ..

بروفسير : بيورن أوليفس

كانت لهجة الخطاب مهذبة لكنها جافة متحفظة تقول برقة : أنت نصاب أو مخبول يا سيدى الفاضل ..!

على كل حال لن يلاحظ (هن - تشو - كان) شيئًا من ذلك .. بقى أن أتصل به لأعرف ما هو بالضبط ذلك (الكثير الذى يهم النرويجى أمره) و (ما يستطيع إضافته إلى هذه المأساة) ..

وفى تلك الليلة جاءنى ليسرد علىّ بالتفصيل ما يدور بخلده .. وكان ما قاله غريبًا .. غريبًا على مسمعى أنا الذى لم يعد شىء قادرًا على إثارة دهشتى ..

* * *

القاهرة فى أكتوبر ١٩٦٧

البروفسير / بيورن أوليفس المحترم

وصلنى اليوم خطابك شديد التهذيب والرقى ، وإننى لشاكر لك اهتمامك بالأمر ، وإن وشت لهجة الخطاب بالشك فى جدوى الأمر كله ..

والواقع - سيدى - أن ما سأقدمه لك لكفيل بإثارة اهتمامك ، فأنا نشأت فى (التبت) وأنتمى أصلًا إلى إحدى فصائل قبيلة الـ (شيربا) التى حطت رحالها فى المكان الذى صار قريتى فيما بعد . وذلك قبل أن تنزح (الشيربا) إلى (نيبال)(*) .

(*) إن جميع أدلاء (الهيملايا) هم من قبائل (شيربا) الذين نزحوا إلى (نيبال) ، وعددهم اليوم ٨٥ ألفًا ويتمتعون بلياقة بدنية عالية حتى أن المستكشفين يسمونهم بـ (ذوى الثلاث رئات) .

كما أننى تلقيت تربية خاصة فى أحد الأديرة وأعرف شيئًا عن رجل الثلوج أو (الياتى) كما يسمونه منذ عام ١٨٣٨ أو الـ (مى - جى) كما اعتدنا نحن أن نسميه .

إن الرهبان فى (التبت) متحفظون لايتكلمون إلا بمقدار . لكنى أعرف أنهم يملكون الكثير مما يمكن قوله عن رجل الثلوج الغامض هذا ومزاجه المتقلب ، ويعرفون بدقة متى يستطيعون التنبؤ بثوراته وسبب هذه الثورات .

إننى واثق أن واحدًا أو اثنين من رجالكم ما زال على قيد الحياة وأعرف بالتحديد أن (الياتى) هاجم الثلاثة المستكشفين فى مخيمهم ، بل وأعتقد أننى أعرف مكان هذا - أو هذين - الناجى أو الناجيين .

تسألنى عن السبب يا سيدى ..

سأقول لك - وأرجو أن تصدقنى - إننا نملك شفافية خاصة تجعل من الرؤى التى نراها نوعًا من (الاستقبال فائق الحسّ) ، ولا أدرى ما إذا كان ما رأيته إرسالًا من (الياتى) أم من رجلكم .. كل ما أعرفه هو أن المستكشف وحيد جائع فى كهف مظلم ، وهو لم يمت بعد حتى هذه اللحظة ..

ولأؤكد كلامى أكثر ؛ أقول لك إن هذا الرجل أشقر .. له زوجة تدعى (نورا) وطفل اسمه (كرست) وهو يفكر

فيهما طوال الوقت ، وكنت أرى هذه الرؤيا مرارًا فى الشهور القليلة الماضية ، لكنى لم أر لها دلالة ما حتى قرأت خبر الحملة المنكوبة فى إحدى الجرائد المصرية ، عندئذ ربطت دون جهد ما بين الحدثين ..

سيدى ..

أعتقد أنك تستطيع التأكد من هذه الجزئية دون عناء .. وعندها يمكننا أن نواصل الحديث عما يمكن عمله لإنقاذ هذا البائس أو هذين البائسين ..

وأنا فى انتظار ردك على السفارة الخاصة بجمهورية (الصين الشعبية) .

المخلص : (هن - تشو - كان)

★ ★ ★

بعد أسبوعين وصل الرد ..

كان البروفسير النرويجى موشكًا على الجنون وقد تبدت لهفته حتى فى الخط الذى كتب به العنوان ..

وطبعًا أحضر الكاهن الأخير الخطاب لى لأترجمه له ..

عزيزى مستر (هن - تشو - كان) :

كان من المذهل بالنسبة لى أن أتأكد من المعلومة التى ذكرتها فى خطابك ، وواضح أنك كنت تتحدث عن (إينار أنسلن) قائد المجموعة ، وهو جيولوجى فى الأربعين من عمره تنطبق عليه المواصفات تمامًا .

ومن الغريب هنا أن امرأته تعانى من رؤى مماثلة فى الآونة الأخيرة مما يوحى بأن (أنسلن) هو مورد خصب للإشعاع فائق الحس ..

والحق أقول لك إننى لا أومن كثيرًا بموضوع الإدراك فائق الحس (E. S. P.) ، لكن الحقائق تقول إنه موجود وإنه فعّال ..

والآن نتحدث عن خطتنا المُزمعة ..

من المصادفة أننى قادم إلى القاهرة فى منتصف شهر (نوفمبر) ضيفًا على أحد المؤتمرات الجيولوجية ، وستكون هذه فرصة جيدة للقائنا ومناقشة ترتيبات إنقاذ رجلنا الذى تؤكد أنت أنه لم يمت بعد .

ستكون إقامتى فى فندق (......) ويمكننا أن نلتقى فى الساعة الخامسة عصر أى يوم حتى نهاية (نوفمبر) .

بإخلاصى ..

بروفسير / بيورن أوليفس

ما أن أنهيت تلاوة الخطاب حتى رفعت عينى نحو (هن - تشو - كان) متسائلًا فى حيرة :

- ما الذى تنتويه بالضبط ؟
- إنقاذ المستكشف طبعًا ما دمت أستطيع ..
- وهل ستسافر إلى (التبت) ؟

- طبعًا .. فأنا أعرف أين وكيف أجد الـ (مى - جى) ..

- وتكاليف السفر ؟.. هل سيتحملها النرويجى ؟

- هذا ما سنعرفه حين يجىء ..

هرشت رأسى فى حيرة ووضعت القلم - كسيجارة وهمية - بين أسنانى ، وسألته :

- هل ستعود لوطنك بعد كل هذه الأعوام ، وكل هذه الظروف ؟ لنفرض أن أمرك افتضح ؟

مدّ يديه إلى جانبيه وهزّ رأسه بمعنى الخواء :

- لم يعد هناك (نافاراى) .. لا أحد يعرف الـ (نافاراى) .. أنا اليوم مواطن صينى كأى مواطن آخر ..

- وماذا عن كتاب الـ (شوكارا) ؟.. هل ستأخذه معك ؟

- (هن - تشو - كان) لن يفارق الـ (شوكارا) أبدًا ..

كنت قد نصحته أكثر من مرة بعمل نسخة زنكوغرافية لهذا الكتاب خاصة وأنه كان قد بدأ يهترئ .. لكنه رفض رفضًا باتًا خاصة وهو لايثق بأحد يرى صفحات هذا الكتاب .. وعبثًا حاولت إقناعه أن من يرى الكتاب المكتوب بلغة (التبت) القديمة لن يفهم حرفًا ، لكنه كان مرتابًا ويعتقد أن الحظ العاثر سيجعله يتعامل مع الرجل الوحيد الذى يعرف تلك اللغة فى العالم حتى ولو كان هذا الرجل من (بولاق) .

نظرت له فى ثبات .. ثم غمغمت دونما مناسبة ظاهرة :

- يجب أن تتزوج يا (هن - تشو - كان) ..

- أتزوج ؟.. لماذا ؟

- لأنك أنت آخر (نافاراى) على وجه الأرض .. ومن بعدك لن يكون هناك آخرون .. ولن يستفيد أحد من كتابك هذا ..

هزّ رأسه فى عصبية كأنما ليطرد الفكرة من ذهنه :

- زواج .. مستحيل !.. الـ (نافاراى) إذا تزوج لا يعود كذلك ..

نعم .. أنا أفهم هذا .. الموظف الشريف يظل كذلك حتى يحصل على أول رشوة .. جهاز المذياع الجديد يظل كذلك حتى تصلحه أول مرة ..

هو (نافاراى) فى كل شىء ولا يريد إفساد (نافارايته) بالزواج ..

لكنى أتمنى على الأقل لو أنه لقّن خبراته لأجيال من بعده حتى لايموت هذا العالم الجميل النبيل .. عالم الـ (نافاراى) ..

أشار لى (هن - تشو - كان) متسائلاً :

- وأنت ؟.. هل تأتى معى ؟

إلى الـ (تبت) ؟.. لأطارد رجل الثلوج فوق الجبال الجليدية ؟.. مستحيل يا فتى .. إن (رفعت إسماعيل) عجوز مجنون لكن ليس إلى هذا الحد .. لم أعد قادرًا على صعود سلم دارى دون أن تمزق صدرى خناجر الذبحة الصدرية ، وأنت تريد منى أن أصعد جبال (الهيملايا) ؟!..

* * *

طيلة الليالى التالية كان نومى كنوم (النابغة) الذى (فرشت له العاديات هراسًا به يُعلى فراشه ويُقشب) ..

لا أدرى ما هو دخلى بهذه القصة ، لكن الـ (مى - جى) وإخوانه ظلّوا يترددون على شقتى كل ليلة ، ويفتحون باب حجرة النوم مكشرين عن أنيابهم الصفراء الحادة والثلوج تتساقط من فرائهم - أو لعله شعرهم - فتذوب على أرض الصالة تاركة بقعًا كبيرة من الماء و ...

لقد فسد (فريزر) ثلاجتى من جديد .. ذكرونى أن أصلحه إذا ظللت حيًا حتى الصباح ، ولم يفترسنى الـ (مى - جى) بعد انتزاع أحشائى ..

وحين أنّ جرس الهاتف فى ذلك اليوم كنت أعرف أنه (هن - تشو - كان) وكنت أعرف بالتحديد ما سيقول :

- د. (رفعت) .. أنا ذاهب للقاء البروفسير (أوليفس) الآن وأرغب فى أن تقوم بالترجمة لحوارنا ..

- لكن نوم العصر مهم عندى كما تعـ ......

كانت رنة صوته عصبية شرسة هذه المرة وهو يقول :

- لم يعد هناك وقت نضيّعه .. إن الأمور تقترب من النهاية فى (منولنج) .. أنا واثق من هذا ..!

* * *

٥ - الرحيل ..

لم يكن البروفسير (بيورن أوليفس) يختلف عن مواطنيه ..

دع أى واحد من الشعوب الإسكندنافية يطيل لحيته الشقراء ويفقد بعض الشعر من مقدمة رأسه ويرتدى المنظار ، وعندئذ سيكون هو ذلك الرجل .. وإننى لأسائل نفسى عن سبب التباين فى وجوه المصريين على عكس الزنوج الذين يبدون كلهم زنوجًا .. والصفر الذين يبدون كلهم صفرًا .. والبيض الذين يتشابهون جميعًا ..

قاعة الاستقبال بالفندق الفاخر ..

موسيقا هادئة تتسرب من مكان ما .. نفس المكان الغامض الذى تجىء منه تلك الرائحة العطرة ودخان التبغ ..

سأحاول أن أكون مختصرًا فى وصف المقابلة ، لكن دعنى أكرر أن نصيبى منها كان التجاهل التام لشخصى لأن النرويجى - قاتله الله - ركز كل همه على معرفة كل ما يمكن معرفته من (هن - تشو - كان) ، واعتبرنى مجرد جهاز ترجمة بلا إحساس ولا وعى ..

فى البدء كانت كلمات التعارف .. ثم بدأ الحديث فى (الأعمال) كما قال هو ، وكان أول الغيث قطرة ..

قال لنا البروفسير (أوليفس) وهو يقلب السكر فى قدحه :

- إن ما تعرفه عن (الياتى) يا مستر (هن - تشو) هو أعمق بالتأكيد وأدق من معلومات أى أوروبى ..

- أظن هذا ..

هكذا قال (هن - تشو) بالعربية فترجمتها للإنجليزية ، وسأغفل ذكر دور الترجمة من الآن فصاعدًا ، حتى لا أفسد سياق الحديث ..

- إن معلوماتنا عن الـ (ياتى) محدودة جدًا .. أعتقد أن أول من سمع كلمة (ياتى) فى العالم الغربى هو كولونيل (وادل) البريطانى الذى كان يعمل بالجيش الهندى .. وقد قابله - كما زعم - على ارتفاع خمسة كيلومترات بمنطقة (سيكيم) .. ، بعد هذا تكررت القصص المتشابهة لعل أشهرها قصة مواطنى عالم النباتات (هنريك ألواسى) ، الذى شاهد ذات المخلوق ، بعد هذا تأتى محاولات البريطانى (ايريك شيسون) ، والهندى (تومبازى) ، والإنجليزى (هوارد بورى) ..

كلهم رأوا آثار الأقدام العملاقة على الجليد ..

منهم من قابله شخصيًا أو زعم ذلك ..

وكلهم أجمعوا على أنه مخلوق عملاق أقرب للقرد مكسو بالشعر ، يسير على قدمين ، وطوله يناهز الثلاثة أمتار والنصف ..

لقد حاول علماء (الأنثروبولوجى) فى العالم كله البحث عن حقيقة هذا المخلوق .. فى عام ١٩٥٤ حاول البريطانيون البحث عنه .. ثم حاول رجال البترول من (تكساس) ذلك عام ١٩٥٨ .. حتى السوفيت حاولوا فى عام ١٩٦٢ ، لكن الجميع لم يجدوا سوى آثار أقدام تؤكد أن هناك (شيئًا ما) .. وهذا الشيء يقترب كثيرًا من سمات إنسان (نياندرثال) التشريحية ، لكنه بالتأكيد ليس هو ..

والمؤكد الآن أن مكان هذا الشيء هو فى جبال (الهيملايا) وجبال (البامير) و (منغوليا) ..

هذا اللغز الحىّ يجول تاركًا آلاف علامات الاستفهام خلفه .. ومعها جثث عاثرى الحظ الذين يتصادف أن يقابلوه ..

ثم إنه وضع القدح جانبًا وضغط عينيه من تحت المنظار فى إنهاك ، وأردف :

ـ يجب أن أضيف هنا أن رجل الثلوج ليس مقصورًا على (التبت) فقط .. فهناك ـ فى الولايات المتحدة ـ رجل ثلوج خاص بهم فى الشمال قرب الحدود الكندية ،



وكلهم أجمعوا على أنه مخلوق عملاق أقرب للقرد مكسو بالشعر ، يسير على قدمين ، وطوله يناهز الثلاثة أمتار والنصف ..

ويسمونه (الساسكواش) .. لقد كان كل شعب من شعوب النصف الشمالى من الكرة الأرضية يملك واحدا ، ولعل هذا دليل آخر على وجود أساس لهذه الأسطورة ..

مرة أخرى أسمع عبارات د. (رتشارد كامنجز) التى قالها لى وهو يحدثنى عن (دراكيولا) يومًا ما فى عام ١٩٥٩ .. كان ذلك من ثمانية أعوام عرفت الكثير فيها ، وتعلمت خبرات مروعة .. لكن القاعدة ما زالت سارية ..

إذا تحدث الناس عن المذءوبين فاعلم أنّ هناك أساسًا لكلامهم .. ربما كان المذءوبون موجودين حقيقة ، وربما كان هو مرض (البورفيريا) .. لكن لا دخان دون نار .. ولا بد من سبب لانتشار أسطورة ما ..

ومطّ البروفسير عنقه الطويل نحو (هن ـ تشو ـ كان) وسأله :

ـ لقد صدر كتاب تشريح فى (بكين) منذ مائتى سنة يظهر رسومًا دقيقة جدًا لهذا الكائن.. هل عندك فكرة عنه ؟

ـ للأسف لا .. لكنى أعرف أن مومياءه محفوظة فى عدد من أديرة (التبت) لكن لا يُسمح لأحد بالاطلاع عليها ..

ـ والآن يا مستر (هن ـ تشو) .. هلا أخبرتنى بما تعرف ؟

★ ★ ★

بدأ الكاهن الأخير يحكى ..

كان حذرًا فى سرد قصته فلم يذكر تفاصيل حول نشأته أو مذهب الـ (نافاراى) ، ولكنه تحدث عن الأسطورة بشكل عام ، وقال إن هناك ما يدعوه للاعتقاد بأنه قادر على الوصول إلى مكان تجمع هذه الوحوش ، وبالتالى المكان المنتظر العثور على المستكشف فيه ..

وكانت هذه هى نقطة المحادثة الأساسية ..

ـ والآن يا مستر (هن ـ تشو) ـ قالها البروفسير فى كياسة ـ هل تعتقد بإمكانية مرافقتى فى حملة جديدة على نفقة الحكومة النرويجية لمواصلة ما كنا بدأناه ؟

ـ بالتأكيد ..

وتم الاتفاق على أن يكون السفر يوم ١ ديسمبر .. وأن يقوم (هن ـ تشو) بإنهاء الإجراءات الإدارية والحصول على موافقة حكومة (جمهورية الصين الشعبية) على الرحلة (*) .

ـ إن (نورا) زوجة المستكشف ستكون معنا ..

ـ ماذا ؟.. وهل ستأتى من (النرويج) ؟

ـ إنها موجودة فى (الصين) منذ شهور !

★ ★ ★

(*) يمكن الوصول إلى (التبت) عن طريق (نيبال) أو (الهند) كذلك ، و (نيبال) هى أشبه بقطعة جبن فى شطيرة مكونة من (الهند) و (التبت) .

مساء يوم ٣٠ نوفمبر ، توجهت إلى (المرج) لأزور (هن ـ تشو ـ كان) للمرة الأولى (ولربما الأخيرة) ..

كانت الشقة مملوءة بالزخارف الصينية والنقوش والتنانين الملتوية فى كل مكان .. على الجدران .. فى مطفأة السجائر .. على الستائر ..

وفى الجو تنتشر رائحة البخور .. الخلاصة أن الفتى حول شقته إلى أحد المعابد البوذية كئيبة المنظر ..

كان يحزم حقائبه ، وفى صوته رعدة لم أخطئ تبينها .. وفى عينيه حيرة وذهول وارتباك .. أنا أعرف سبب هذا .. إن قلبه واجف من هيبة اللقاء ..

غدًا يعود إلى وطنه ، ويرى ثلوج (التبت) والقرى والفلاحين البسطاء الذين يرعون حيوان (الياك) ويحتسون الشاى بالزبد ..

وطنه الذى لم يره منذ .. منذ عشرة أعوام إذا أخذنا بالظاهر .. ومنذ خمسة قرون إذا توخينا الدقة ..!

قال لى مبتلعًا ريقه ، وهو يدسّ جواربه فى الحقيبة :

ـ غريب هذا .. لقد كان الصينيون هم أعدائى الطبيعيون ، واليوم أعود ضيفهم ، بل وأتظاهر بأننى واحد منهم .. ، هذه المرة لن أجد معابد الـ (نافاراى) ولا أديرة الجبل .. ولن أقابل الأخ (ميانج) .. لقد اندثر كل ما كان يربطنى بتلك الأرض ..

وأدار وجهه فأدركت أنه يدارى دمعة .. فاحترمت مشاعره وتظاهرت بأننى لم ألحظ شيئًا ..

سأفتقدك كثيرًا أيها الكاهن الأخير ..

حقًا سأفتقدك ..

ـ وهل ستعود ؟

ـ بالتأكيد ـ ما لم أمت ـ فهذا البلد هو وطنى الحالى .. الوطن هو حيث يوجد أحبابى ، وأنا لا أعرف أحبابًا فى (الصين) ..

فتحت حقيبتى وأخرجت منها بضعة أشياء أردت منه أن يحملها معه هناك ..

الشىء الأول هو كاميرا صغيرة مزودة بفلاش لتتيح له تصوير هذا المخلوق إذا استطاع .. وشرحت له بسرعة كيف يستعملها ..

الشىء الثانى هو سلسلة صغيرة اعتدت أن أحملها معى ظانًا أنها تجلب لى الحظ ، فلم لا يجربها هو الآخر ؟

الشىء الثالث هو صورة طلبت منه أن يدفنها تحت ثلوج (الهيملايا) فى أنأى أطراف الأرض ، ولو كان ذاهبًا للقطب الشمالى لطلبت منه نفس الشىء ..

كانت هذه الصورة صورة (هويدا) ..

★ ★ ★

وهكذا ... سافر الكاهن الأخير مع الأستاذ النرويجى ، وبقيت أنا غارقًا فى مشاكلى اليومية .. بين محاولة الإقلاع عن التدخين ، وبين خطبتى التى وجدت أن الحل الأمثل هو إنهاؤها برغم محاولات الإصلاح من رسل الخير مثل (عادل) و(سهام) ..

مشكلة هذه الزيجات التى يتوسط فيها الأصدقاء هى أن التخلى عنها يسبب حرجًا للجميع .. ، على أننى لم أظلم (هويدا) .. هى التى بالغت كثيرًا جدًا فى عصبيتها وحساسيتها إلى حدّ أحال الحياة جحيمًا .. ولئن كانت الخطبة قد فشلت لأنها مدللة متقلبة أو لأننى كهل أصلع غريب الأطوار فالنتيجة واحدة ..

لقد تلاشى الطفل الذى كنا سنرزق به يومًا ما ، ويحمل نصف كروموسوماتى ونصف كروموسوماتها .. والعلاقة التى كانت (نحن) قد صارت (أنا وأنت) ثم (هو وهى) أخيرًا ..

وفى حفل عائلى بهيج تم انتزاع الدبلتين وإعادة الهدايا - هداياها لى فقط طبعًا - مع بعض الكلمات المتحضرة عن (النصيب) و (الصداقة التى هى أفضل من كل شىء) ..

لو عرفت أمى لقتلتنى ..!..

أقول إننى نبث فى هذه السخافات حتى أننى ، وبدا لى عالم الـ (مى - جى) وزنيره وجبال (التبت) شيئًا بعيدًا جدًا وباهتًا ..

وقد بدأ العام ١٩٦٨ بداية باردة بلا نكهة ..

ترى ماذا تفعل الآن يا (هن - تشو - كان) ؟..

سأتركه يحكى لكم الصفحات التالية ، ولكننى أحتفظ لنفسى بحق التعليق فى النهاية .. كما أحتفظ بحق صياغة حكايته بأسلوبى أنا ..

ذكرونى - قبل أن أفارقكم - بإصلاح (فريزر) ثلاجتى لأنه يملأ عالمى ببقع الماء ..!

* * *

الجزء الثانى

احترسوا من الـ (مى - جى) !

إنه فى كل مكان .. خلف كل هضبة .. ووراء كل مُنحنى جليدى .. وفى قلب كل كهف .. ، نسمع صوت زئيره الجشع .. ونشم أنفاسه العفنة .. ونرى آثار قدميه الهائلتين .. ونتوقع الأسوأ ..!

ستكون حسرة لنا لو لم نره .. وستكون نهايتنا إذا رأيناه !..

١ ـ عند سقف العالم ..

قال (هن ـ تشو ـ كان) :

كانت العودة إلى (التبت) أليمة ..

صحيح أنها كانت محببة للنفس .. لكنها أليمة ..

أن يعود الابن لدار أبيه الذى يعرف أنه مات ..

وحين رأيت (التبت) لأول مرة ، عرفت أننى لن أظل هناك .. وعرفت أننى لم أعد أنتمى لشىء إلا لبعض حيوانات (الياك) وربما لمن تبقى من الـ (مى ـ جى) أنفسهم ..

★ ★ ★

الريح تزأر كعهدها ..

والثلوج تهوى فى رفق لتدهن الجبل باللون الأبيض ..

فى هذه المرة لم أكن أرتدى ثياب الـ (نافاراى) الزرقاء ، ولم يكن معى أحد ليدربنى .. بل كنت أرتدى ثيابًا عصرية مبطنة بالفراء ، وأضع منظار الجليد وأعلق فى صدرى منظارًا مقربًا ..

وإلى جوارى كان البروفسير (بيورن أوليفس) والزوجة النرويجية المكلومة (نورا) ، وثلاثة حمالين من قبائل

(شيربا) النيبالية ، إنهم من قومى لكن خمسة قرون تفصل بينى وبينهم .. ولا يمكن أن يعرفونى ولو حاولوا ، وكان معنا واحد منهم يجيد الترجمة من الإنجليزية للصينية والعكس ..

كتاب (شوكارا) مغلف بكيس من المشمع ومربوط بعناية إلى خصرى من تحت الثياب الثقيلة ..

كنا نتجه عبر الممرات الجليدية الوعرة فى (منولنج) بادئين بالمكان الذى وجدوا فيه الخيمة الممزقة ، متجهين إلى الكهف الذى جلته يومًا مع الأخ (ميانج) لنقدم لـ (مى – جى) وجبته ..

أذكر أننا كنا نرتقى هذه الهضبة ، وندور حول ذلك الجرف الجليدى ثم .... للأسف تغيرت أشياء كثيرة .. لم يعد شيء كما كان ..

لا توجد علامات مميزة وسط هذه الثلوج يمكن الاسترشاد بها ..

اقترب منى البروفسير وهمس فى قلق :

– ماذا حدث ؟

– اختلطت علىّ الطرق .. لا أستطيع العودة إلى الكهف ..

– إذن ؟

– فلنعتمد على الحدس .. التخمين .. فلنتأمل .

تبادل هو والزوجة نظرة لم أدر مغزاها .. هل هى نظرة سخرية أم شيء آخر .. ثم تنهد ونزع جربنديته وألقاها أرضًا وجلس فوقها :

– ليكن .. تأمل ما يحلو لك !

نظرت إليه لوهلة ، ثم إننى أدرت ظهرى .. وشرعت أمشى بين الكتل الجليدية الغافية فى ضوء الشمس الباهت .. أمشى إلى أن بلغت مساحة خاوية لا يرانى فيها أحد ..

التحية لكم يا رجال الـ (نافاراى) .. أنا الزهرة الزرقاء قد عدت لأقرئكم السلام .. هل تذكروننى ؟

* * *

إننا ضيوفهم .. والضيف مرغوب فيه ما لم يُبْد فضولًا زائدًا ..

* * *

إنها الـ (نيرفانا) ..

هأنذا أذوب فى الوجود ويذوب الوجود فىّ ..

أنفصل بالتدريج عن حقائق الحياة وعن مادياتها ، فلا يعود فى ذهنى سوى مجرى نهر صاف يتلألأ فى ضوء الشمس .. أنا هذا النهر .. أنا قديم كالأزل ، راسخ كالجبال ، سخىّ كالأمطار ..

ها هى ذى الرؤيا تتشكل ..

ببطء .. ببطء ..

أرى كهفًا مملوءًا بالجمرات المتقدة التى هى عيون الـ (مى – جى) ..

أرى الأخ (ميانج) يقرئهم السلام ، ويسكب جواله على الأرض فتتناثر جثث الحيوانات الصغيرة ..

أرانى صغير السن ناحل الجسد ، أتأمل فى رعب ما يحدث وأرتجف .. ثم .. النهر يتفرع ويتخذ مجرى جديدًا ..

هذا الرأس الأشقر .. إننى أعرفه .. إنه هو النرويجى (أنسلن) وقد هزل جسده وتساقط شعر لحيته من فرط المعاناة .. لكنه ليس حيًا !..

رقبته مهشمة تقريبًا ، والموت يطل من عينيه الذابلتين ، لكنه يرفع رأسه ويقول لي وهو يتأرجح :

– تأخرتم كثيرًا جدًا .. لقد فات الأوان !

– ولكن أين أنت ؟

يغمض عينيه فى إنهاك ويقول وقد جفت شفتاه :

– لقد قتلونى كأرنب برى ..

– هذا واضح .. ولكن أين أنت ؟

– دفنونى تحت الثلوج فى مكان ما .. حتى أنا لا أعرف كيف أحدده ..

الرؤيا تتلاشى قبل أن أتمكن من معرفة أكثر ..

العالم المادى الوقح يقتحم خدر عالم التأمل الشفاف الحالى .. ، عندئذ أنهض عائدًا إلى حيث تنتظر المجموعة .. فيسألنى البروفسير فى فتور :

– هيه ؟.. هل حققت شيئًا ؟

فأمد يدى إلى ذراعه وأجذبه بعيدًا عن الأسماع (أنا أعرف أن المرأة لا تجيد الإنجليزية لكن واجب الحذر يملى علىّ ذلك) ، وأقول له بإنجليزيتى الكسيحة الطفلة :

– أعتقد أن الأمر انتهى ..

قال لى مزمجرًا :

– اسمعنى يا بنى .. لو أنك مصمم على استعمال الإنجليزية وأنا مصمم على استعمال الصينية ، فإن حملتنا هذه ستنتهى دون أن يفهم أحدنا حرفًا مما يقول الآخر ..!

حركت يدى لتساعد فمى على الكلام ..

– أعتقد أن .. (أنسلن) .. انتهى ..

– تعنى أنه مات ؟

– حتمًا ..

أطلق عبارة ما أظن أنها نوع من السباب ، وبصق على الأرض الجليدية .. رذاذ البصقة تجمد على حذائه وأطراف سترته :

ـ أنت (تحدس) ذلك طبعًا .. لكن لا دليل ..

ـ إن حدسى هو .. دليل كاف ..

نظر حوله فى تؤدة .. ثم أمسك ذراعى وهتف :

ـ إذن لا تذع النبأ .. إن امرأته مرهفة الحس كما تعلم ، ومن واجبنا مواصلة حملتنا اليائسة هذه حتى نعود به أو بجثته ..

عليك إذن أن تستمر ..

وهكذا واصلنا المسير ..

أحيانًا كنا ننصب خيامنا لنقضى الليل .. ثم ننهض فى الصباح مواصلين مسيرتنا وسط الطرق الثلجية الوعرة ، وكلما وجدنا كهفًا كنت أنفصل عن أحد الحمالين وأصعد لاستكشافه ثم أعود ـ دائمًا أعود ـ بخفى حنين ..

لا مستكشفين مفقودين .. لا آثار أقدام .. لا (مى ـ جى) ..

* * *

لكن الإحساس بوجوده كان قويًا .. رائحته فى الجو .. وزمجرته تكاد تثقب أسماعنا ..

إنه ذلك الشعور العصبى الذى يراود مرتادى الثلوج ، أن هناك من يراقبك طيلة الوقت ومن يدرى ؟.. لربما كان شعورًا صادقًا ..

أحيانًا كانت المرأة تنادى بصوتها الرفيع :

ـ (أنسلن) !.. أنا (نورا) !

فيردده الصدى ملايين المرات :

ـ را .. را .. را .. را ..!

محدثًا ذلك الشعور الموحش المثير للانقباض .. وتهوى قطعة جليدية من أعلى الجبل لتتهشم عند أقدامنا ..

يقولون إن الجليد مرعب.. ويقولون إن الصحراء مفزعة .. فماذا عساهم يقولون عن الصحارى الجليدية ؟..

أنا قد نشأت فى هذه الأصقاع ، وقد اعتدتها كبيتى .. ولكن ماذا عن هؤلاء الغرباء الذين لقوا حتفهم هنا ؟..

* * *

فجأة صاح أحد الحمالين مناديًا إياى لأرى شيئًا على الأرض ..

شيئًا أسود اللون صغير الحجم مدفونًا بين الثلوج ، فمددت يدى لألتقطه وأفحصه .. سمعت (نورا) تصيح من خلف كتفى :

ـ الغليون ..!.. غليون (سيجفريد) الذى لا يفارقه .. إننا نسير فى طريق صحيح ..



فمددت يدى لألتقطه وأفحصه .. سمعت (نورا) تصيح من خلف كتفى : ــ الغليون ..!.. غليون (سيجفريد) الذى لا يفارقه ..

هرش البروفسير رأسه فى حيرة وسألها بالنرويجية عن شيء ما ، فبدت مصرّة .. ثم إنه التفت إلىّ لينقل حيرته :

ــ لا أفهم .. لقد هوجموا فى موضع الخيمة الممزقة ، والآن نجد هذا الغليون هنا .. حتى إذا كان الـ (ياتى) قد حمله إلى وكره ، فلا أظن أن هذا وقت مناسب لـ (سيجفريد) كى يدخن الغليون فى أثناء حمله ..

قلت له وأنا أناوله الغليون :

ــ لا أظن الأمر كذلك .. لقد احتفظ الـ (ياتى) بالغليون كلعبة يلهو بها .. أو للذكرى ، وحملها إلى هنا حيث ألقاها بعد أن فقد اهتمامه بها ..

ــ إذن نحن نسير فى طريق (سيجفريد) ..

ــ أعتقد أننا نسير بالتأكيد فى طريق الـ (ياتى) !

وواصلنا السير وقد ازددنا حذرًا ..

★ ★ ★

فى عصر ذلك اليوم صعدت مع المرأة فوق الصخور المكسوة بالجليد نستكشف أحد الكهوف الذى كان مستواه يعلو عن رءوسنا كثيرًا .

كانت تجاهد لالتقاط أنفاسها لأن نسبة (الأكسجين) فى الهواء توشك أن تكون معدومة ، والواقع أن نقص

(الأكسجين) هو مشكلة المشاكل فى هذه الجبال ، حيث يختل توازن المرء ويتصرف كالسكارى ، ولربما أصابه ارتشاح رئوى يودى بحياته ..

وفيما بعد ، عرفت أن عددًا كبيرًا من علماء الغرب ، يعزون كل ما حكاه المستكشفون عن الـ (مى . جى) إلى هذا السبب : هلاوس ناجمة عن نقص (الأكسجين) فى المرتفعات ..

المهم أننى ساعدتها كى تثبت حذاءها المسمارى فى طبقة الجليد الهشة الصاعدة إلى الكهف ، ووثبت خلفها ..

ثم بدأنا نسير على إفريز ضيق وقد ألصقنا ظهرينا بالصخور ..

وحانت منى نظرة لأسفل فرأيت الوادى الجليدى مرتميًا عند قدمىّ ..

كان خطأ جسيمًا أن أقودها إلى هذا المكان ..

أخرجت حبلًا من النايلون وربطته إلى خاصرتى ثم ربطته إلى خاصرتها لأتأكد من أنها لن تهوى كالصخرة بمجرد أن تنظر لأسفل ، وأشرت لها أن تتبعنى ببطء .. ببطء ..

وهنا حدث أسوأ ما توقعت ..

سمعنا صرخة مدوية قادمة من أعلى ..

صرخة لا يمكن أن تخرج من حنجرة بشر ..

عرفت على الفور مصدر هذه الصرخة لأننى أذكرها جيدًا ..

★ ★ ★

أخ (ميانج) !.. افعل شيئًا !

★ ★ ★

كما توقعت أجفلت الفتاة ..

انزلقت قدماها من فوق حافة الإفريز .. فهوت لأسفل وهى تصرخ صرخة طويلة توحى بالنهاية ..

وخلفها تتلى الحبل ..

شعرت بالسرور لأننى توقعت شيئًا كهذا من قبل ، ولأننى ربطتها بإحكام إلى جذعى .. إذن كل ما علىّ هو أن أتشبث وأجذبها إلىّ ..

لكن سرورى لم يدم ..

أسمع صوت (الشيربا) يرددون من أسفل :

- آباتى !.. آباتى !.. (خطر .. خطر !) ..

وأشعر بالحافة التى أقف فوقها تتهاوى ..

وقدماى لم يعد تحتهما جليد ..

★ ★ ★



لكنى بالفعل أرتفع .. لقد فعلتها منذ قرون واليوم أعود لها ..

٢ ـ كشف الأوراق ..!

عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب الماء الأزرق .. عندئذ يبدأ فجر الـ (نافاراى) ..

★ ★ ★

لن أسقط !

أنا (نافاراى) .. والـ (نافاراى) لا يخضع بهذه السهولة لقانون الجاذبية ، ما دام يملك أن يكون هو قانون الجاذبية ذاته ..

أذوب فى (النرفانا) ..

ألتحم بالكون وحقيقة الموجودات وفلسفة الذرات ، وأرى نفسى أحلق فى سماء الحقيقة .. إن روحى لن تسقط ..

فلتحلق جزيئاتى مع روحى ..

يا كل خلية فى جسدى .. أطيعى أوامرى وارتفعى ..

كان العرق يغمر جبينى فيتحول إلى بللورات ثلجية .. لكنى بالفعل أرتفع .. لقد فعلتها منذ قرون واليوم أعود لها ..

أرتفع .. أرتفع ..

لامست قدماى الجرف الجليدى الهش ، فأرحتهما هناك ، وبيد صلبة بدأت أجذب الحبل رافعًا جسد المرأة نحوى .. كان قد أغشى عليها ، لذا مددتها برفق على مكان آمن .. وشرعت أفرك جبينها بالجليد كى تفيق ..

وحين أفاقت ..

وحين أدركت أين هى ..

لم توجه لى عبارة شكر .. مجرد نظرة ارتياب وسؤال ملهوف :

– كيف فعلت ذلك ؟

أبعدت عينى عنها وأشرت إلى أسفل قائلًا :

– لا شىء .. أحسنت تثبيت قدمىّ فلم تنزلقا ..

– شعرت بجسدى يرتفع بقوة غير مفهومة .

– لأننى جذبتك بقوة غير مفهومة من ذراعى ..

اتسعت عيناها وتأملتنى فى شرود .. عيناها الزرقاوان الواسعتان ككشافين مسلطين على أدق أسرارى .. تنهدت .. اختلجت شفتاها ثم همست (يلاحظ القارئ أن لغتى ولغتها الإنجليزية قد تحسنت كثيرًا) :

– أنت مخلوق غامض يا (هن – تشو – كان) .. أنت نادر متفرد مملوء بالأسرار .. أحيانًا أشعر بأنك ..

وصمتت قليلًا باحثة عن كلمة مناسبة .. ثم همست :

– أشعر بأنك زهرة زرقاء !!

★ ★ ★

– هيه !.. هل أنتما بخير ؟

دوّى صوت البروفسير متسائلًا من أسفل ، وكنا قد نسيناه تمامًا ، نهضت من موضعى .. وأطللت برأسى صائحًا :

– بخير .. سمعنا صوت الـ (ياتى) فكادت السيدة تسقط ..

– إذن هو فى هذا الكهف ؟!

هززت رأسى أن لا ..

لقد كان الصوت قادمًا من أعلى .. وهذا لا يعنى أن الـ (مى – جى) فى الكهف الآن ، لكنه يعنى – على الأقل – أننا اقتربنا من مملكته – قدس الأقداس – فلا يمكن أن تكون هذه الصرخة إلا تحذيرًا من التمادى ..

وبدأنا النزول عالمين أن بحثنا سينحصر من الآن فصاعدًا فى تسلق هذه المرتفعات واستكشافها ، ومن الحكمة أن يتم ذلك بناءً على خطة وليس اعتباطًا ..

جلسنا نتناول الطعام المكون من الأرز والبطاطس والعدس الممزوج بالزعفران (يسمونه الدال) ، ولم تفتنى

ملاحظة همسات جانبية ونظرات فضولية من الحمالين الثلاثة إلىّ ..

ودون مناسبة دنا أحدهم منى حاملاً سلطانية صغيرة مملوءة بسائل وأشار إلى أن أجرع منها .. كان هذا الحمال من (الشيربا) ويدعى (نيما تنزى) ، ولم أكن أستريح له كثيرًا فى الواقع ، بسبب خبث نظراته ، كأنما يجد دائمًا ما يدعوه للسخرية ..

أشرت بكفى أنى لا أرغب فى الشراب .. فقال يغرينى :

– إنها (تشانج) وليست (راكشى)(*) .

هززت رأسى باشمئزاز :

– لا أشرب الخمر ولا أقربها ..

ابتسامة سوداء شاعت فى وجهه ، ونظر إلى زميليه .. وقال :

– أنت أول (تبتى) لا يشرب الخمر .. فيما أظن ..

لم أرتح كثيرًا لهذه العبارة ، لأنها تدل على أنهم بشأن استنتاج ما بخصوصى .. ذلك الاستنتاج الذى سيتكون من الحقائق التالية :

(*) تشانج : بيرة من الشعير . راكشى : شراب الأرز المختمر .

(ا) أنا أمت لقبيلة (شيربا) بصلة .. لكنهم لا يعرفون كنه هذه الصلة .

(ب) أنا أبدو فى المرتفعات وكأنى فى دارى ، ولا أبدو مرهقًا برغم أنها المرة الأولى لى هنا كما يعرفون .

(جـ) أنا لا أشرب الخمر .

(د) أنا لا أبدى أى نوع من التوقير لـ (بوذا) كما يفعلون هم.

(هـ) أنا أستطيع الارتفاع فوق الأرض .. ولا بد أنهم رأوا ذلك ؛ بدليل أنهم حذرونى من السقوط .

إلام تقودنا هذه الاستنتاجات ؟

هذا ما سأعرفه فى الأيام القادمة ..

* * *

عنيت الساعات القادمة !...

فى المساء دخلت خيمتى المصنوعة من (النايلون) الأخضر ، ونزعت ثيابى إلى حد ما .. ثم جلست أتأمل كعادتى ..

بعد دقائق أغمضت عينى مصغيًا إلى همس الرياح بالخارج .. لم أعتد النوم ليلاً بعد للأسف ، لأن القارئ يذكر أن فجر الـ (نافاراى) يبدأ مع غروب الشمس .. هذا هو وقت تدريباتهم الشاقة ..

لقد هجرت تدريباتى منذ شهر أو أكثر ، لكنى ظللت أمارسها فى أحلام اليقظة ..

وهنا سمعت صوتًا ..

كان هناك من يزيح جدار الخيمة لينسلّ من تحته فى رفق .. وبعين الـ (نافاراى) التى تجيد اختراق الظلام بحكم التعود ، أدركت أن هذا المتسلل هو (نيما تنزى) ..

لمحته يزحف كالثعبان ببطء .. ببطء .. إلى ركن الخيمة الأدنى ، وإذا به يفتح حقيبة ظهرى ، ويعابث محتوياتها ببطء ودقة باحثًا عن شىء ما .. نظر نحوى فى الظلام فلم ير عينى المفتوحتين طبعًا .. كان يفعل ذلك كروتين فقط ..

ثم واصل مهمته المريبة ..

بعد ثوان لمحته يزحف نحوى وفى يده شىء لامع .. خنجر أو سكين يتقدم به نحو عنقى ، مزمعًا شيئًا لا يمكن إساءة فهمه ..

وفى الظلام سمعت صوته يفحّ كالأفعى وهو يهزّنى :

ـ انهض أيها الكاهن الأخير !

★ ★ ★

كانت الصدمة شديدة بالفعل ..

فتحت فمى بعد جهد وتظاهرت بالغباء والذعر :

ـ (نيما) !.. ماذا أتى بك هنا ؟.. أى كاهن أخير ؟

التصق السكين بعنقى .. وسمعته يفحّ :

ـ إذن فلنقل أيها الـ (نافاراى) الأخير !.. لا تتظاهر بالحماقة .. كل قبائل (الشيربا) يعرفون أن هناك قومًا عاشوا فى هذه الأصقاع منذ قرون ، كانوا يجيدون التحكم فى الطبيعة .. وكان اسمهم الـ (نافاراى) .. وكلنا نعرف أنهم بادوا جميعًا فيما عدا واحدًا .. وكلنا ننتظر عودته .. كذا قالت الأسطورة ..

ـ أى سخف ؟!

ـ دعك من التظاهر .. كلنا لمحناك ترتفع عن الأرض لتنقذ المرأة .. أنت لست بوذيًا .. فمن أين أنت إذن ؟

ثم مدّ يده إلى ياقة ثوبى منقبًا عن شىء ما .. ومغمغمًا :

ـ أين الكتاب ؟

هل وصلت معلوماتهم إلى هذا الحدّ ؟ .. اللعنة على (جينغ ـ تشا) وكل رهبان (الماهايانا) الذين نشروا القصة لتتوارثها الأجيال ، وليبحث الكل عن كتاب (شوكارا) عالمين أن من يجده يمكنه حكم العالم ..

ـ أين الكتاب الخاص بكم ؟.. لا تدعنى أذبحك لأفتش ثيابك ..

كنت قد عدت إلى صوابى أخيرًا ..

تحركت فنون الـ (نافاراى) فى دمى فانزلقت كالذبابة من تحت يده المهددة تاركًا إياه على الأرض ..

نهض - غير مصدق - ليهجم علىّ بالسكين ، لكنى وثبت جانبًا تاركًا إياه يرتطم بالجدار ويمزقه ..

هواء الليل والعواصف تندفع مصفرة إلى داخل الخيمة ..

حاول عدة محاولات خرقاء دون جدوى ..

ففى كل مرة كنت أثب جانبًا أو أنحنى أو أتمرغ فى الأرض ، فلا تنالنى ضرباته المحمومة .. كنا قد صرنا فى العراء تمامًا ، بعد أن تمزقت الخيمة .. وعلى الجليد الهش بدأت رقصة الجنون ..

وهنا تبدلت خططى تمامًا ..

إذ سمعت صوت صراخ واحتجاج ..

وعلى ضوء النيران لمحت الحمالين الآخرين يقتادان البروفسير والمرأة ، وعلى عنق كل منهما خنجر حادّ ..

كانت المرأة تولول غير فاهمة لماذا وكيف يحدث هذا ؟..

أما أنا فكنت أفهم ..

مرة أخرى تتكرر اللعبة المعروفة معى .. مادام الـ (نافاراى) غير قابل للهزيمة ، فلتهدد أصدقاءه وذويه أمام عينيه .. نفس اللعبة التى مارسوها مع سكان بناية (رفعت) فى (القاهرة) يومًا ما ..

- دعوا هذين البائسين ..

قال (نيما) وهو ينهض على قدميه :

- ليس قبل أن تخبرنا بحقيقتك وتعطينا ما نريد ..

وحتى لو أعطيتهم ما يريدون .. فالنهاية واحدة وليس أسهل من عودة الحمالين وحيدين من (الهيملايا) ، مرددين أنهم فقدوا مرافقيهم فى انهيار جليدى أليم .. عندئذ من يجرؤ على تكذيبهم ؟

لهذا - ولهذا فقط - اتخذت قرارى ..

- تشا سارايانا !

قلتها وأنا أباعد ما بين ساقىّ مثبتًا قدمىّ على الجليد ..

لم يفهم الأغبياء ما أريد قوله .. صحيح أن لغة (التبت) القديمة غير مفهومة لهم ، لكن التحدى والإنذار واضح ..

- جيانغ سارايانا !

قلتها وأنا أفتح ذراعىّ إلى أقصى امتداد لهما .. ثم ..

- كيو سارايانا !

قلتها وأنا أعيد رأسى للوراء .. ثم ..

لقد صار هذا المشهد مملًا ، لهذا لن أكرره لك لأنك تعرفه جيدًا ..

ركلتان فى الهواء ليدين تمسك كل منهما خنجرًا ، .. ثم وثبة بهلوانية تطيح بالرأسين .. وضربة مدروسة إلى

نقاط الـ (شورا) فى كل من الحمالين .. ثم وثبة أخرى .. وبضع ضربات فى فقرات (نيما) العصعصية .. و ..

ثلاثة حمالين مشلولين مغمورين فى الثلوج يئنون ..

نظرت إلى البروفسير الذى فغر فاه فى بلاهة ، وصحت بلهجة آمرة أثارت دهشته أكثر :

ـ ساعدها على النهوض من فوق الثلوج !

فانحنى وأمسك يدها وأنهضها .. فارتمت على صدره ترمق المشهد بعينين ذاهلتين جفت الدموع فيهما ..

لم أنس أن أقف أمام الجثث الثلاث وأصيح صيحة الختام :

ـ سوان هانشاه سارايانا !

أعتقد أنكم لم تنسوا بعد أن معناها هو : لقد أنذرتكم باستخدام (السارايانا) ..

لقد حدثكم العجوز (رفعت إسماعيل) عن كل هذا .. والواقع أن هذا الرجل لا يملك مزية واحدة سوى ذاكرته ودقة سرده ..

وإلى البروفسير نظرت فى شىء من الحرج .. وقلت :

ـ أعتقد يا بروفسير أننا مضطرون لتركهم هنا .. فهم

جميعًا قد أصيبوا بالشلل .. سنتركهم لمصيرهم الذى يستحقونه ، وإن كنت أتمنى لو لم نفعل ..

ليتنى وجهت لهم ضربات قاتلة تنهى آلامهم ..!

تصلبت عينا البروفسير على وجهى .. وبصوت رتيب بارد سمعته يتساءل :

ـ من أنت ؟

....

★ ★ ★

٣ ـ رعب الثلوج ..!

أمسكت بذراعه لنبتعد عن المشهد ..

لكنه واصل التساؤل فى ذهول وتوجس :

ـ من أنت ؟.. وماذا كان الحمالون يريدون منك ؟

قلت له فى فتور :

ـ بروفسير (أوليفس) .. لنقل إننى شخص يعرف كيف يدافع عن نفسه .. والآن .. نواصل رحلتنا ..

صاحت (نورا) فى هستيريا :

ـ وهل سنترك هؤلاء البؤساء هنا ؟

ـ لا يوجد حلّ آخر .. إذ لا يمكن اصطحاب جرحى عبر جبال (الهيملايا) .. دعك من أنهم هم من أجبرونا على ذلك ..

ـ ولكن ...

ـ هيا بنا ! ولنحمل الأشياء الضرورية فقط ..

★ ★ ★

وهكذا تركنا المكان .. كان الصباح قد بدأ يغمر الثلوج بأشعته الباهتة ، ونحن نواصل مسيرتنا فى الاتجاه الذى بدأنا به ..

عبثًا حاولت أن أقنع البروفسير أن كل هذا مضيعة للوقت لأننى واثق بأن المستكشف قد مات .. من ثم أدركت أنه يفكر فى لقاء الـ (مى ـ جى) ، وأن الروح الإنسانية ليست هى الشىء الوحيد الذى يفكر فيه ..

كان الثلج يزداد هشاشة حتى أن القلق بدأ يراودنى ..

أحيانًا كان أحدنا ينغرس حتى خصره وسط الجليد الناعم فنعاونه على النهوض لاهثين .. ولقد بدأت أتوقع فى أية لحظة أن يسقط أحدنا إلى عنقه ..

حتى بالنسبة لى كانت هذه المناطق غير مألوفة بل ومرعبة ..

ولم نكن قد ابتعدنا أكثر من أربع ساعات حين سمعنا الصراخ ..

الصراخ المذعور الوحشى المتوسل .. تلته شهقة قصيرة ثم صوت الزئير الذى ألفناه ..

تصلبت (نورا) فى ذعر وأمسكت ذراعى :

ـ ما هذا ؟

ـ الحمالون .. ـ أجبتها فى رزانة ـ لقد هاجمهم الـ (مى ـ جى) وهم عاجزون عن الهرب ..

لم أرد أن أخبرها أنه ـ بالتأكيد ـ انتزع أحشاءهم قبل الأكل كما يفعل مع الحيوانات البرية ..

ـ البؤساء !.. فلنعد إليهم !

هززت رأسى فى استنكار :

ـ وما الجدوى ؟.. لقد انتهى الصراخ على كل حال ..

صاحت فى اشمئزاز وقد احتقن وجهها ودمعت عيناها :

ـ لم أتصور أنك بهذه القسوة ..

ـ سيدتى .. ليس هناك قانون فى هذه الأصقاع سوى قانون الطبيعة .. وواجبنا نحن البشر أن نقبله ، وأن نتماسك ويرعى بعضنا البعض .. فمن خالف ذلك فالذنب ذنبه وليس على الآخرين أن يلوموا أنفسهم .. ألستِ من رأيى ؟

وواصلنا المسير بلا هدى سوى خطة باهتة فى رءوسنا عن الاتجاه الذى يجب أن نسير فيه ..

قد يرى أحد أنه من الحكمة أن نعود إذا كنا نريد مقابلة الـ (مى - جى) ؛ حيث إنه موجود حيث فارقنا الحمالين ، لكنى أستبعد أن يظل بانتظارنا هناك .. لابد أنه صعد إلى مستوى أعلى من الجبال ، أو سبقنا .. أو هو فى أعقابنا الآن .. لا أحد يدرى ..

★ ★ ★

إن (الياتى) يسيطر على هضبة (التبت) سيطرة مطلقة برغم أن أحدًا لم يره إلا مصادفة ..

★ ★ ★

كانت منهكة ..

ورأيتها تجلس فاغرة فاها على الأرض منقطعة الأنفاس ، تحاول ـ عبثًا ـ أن تعبَّ الهواء بجرعات كبيرة ..

إنه نقص (الأكسجين) ..

دنوت منها وجلست على ركبتى .. وقلت لها :

ـ أغمضى عينيك وتصورى أنك فى حديقة غناء ..

ـ مستحيل !

ـ بل كل شىء ممكن لو حاولتِ .. هل تصغين لغناء البلابل ؟ .. هل تشمين عبق الورود ؟.. هل تسمعين خرير الماء ؟.. إنه موجود .. فقط عليك أن تركزى انتباهك ..

أغمضت عينيها .. وبدأت تركز أكثر فأكثر ..

ابتسامة رضا بدأت تلتمع على شفتيها ، فأدركت أنها وصلت هناك ، وأن انتعاش الزهور قد لمسها بعصاه السحرية ..

وحين فتحت عينيها كانت أحسن حالًا ..

وسمعتها تهمس وكأنها تغنى :

ـ لقد رأيت الزهور .. وكان من بينها زهرة زرقاء !!

دنوت منها وشعرت بوجيب فى قلبى ..



دنوت منها وجلست على ركبتى .. وقلت لها :

ـ أغمضى عينيك وتصورى أنك فى حديقة غناء ..

أنا لا أخون أحدا .. على الأقل أنا واثق بأن زوجها قد مات حتى وإن لم تعلم هى .. إذن ....

★ ★ ★

لا تكلموهن يا (أناندا) .. لا تروهن يا (أناندا) .. وإذا سألتك إحداهن عن شىء فلا تردّ عليها يا (أناندا) ..

★ ★ ★

عندئذ ـ وقد تذكرت كلمات (جوتاما) ـ تركتها ونهضت أنفض الثلج عن ثيابى .. أنا (نافاراى) وليس من حقى أن أميل للنساء .. أنا (نافاراى) لهذا يجب أن أسحق إنسانيتى ورجولتى ..

★ ★ ★

ـ أتزوج ؟.. مستحيل !.. إن الـ (نافاراى) إذا تزوج لا يعود كذلك ..

★ ★ ★

المسيرة ماضية ..

هذه المرة وجدنا آثار الأقدام الغليظة على الجليد .. آثار الأقدام التى لا يمكن أن يكون صاحبها آدميًا .. طول القدم يقارب الخمسين سنتيمترًا ، وعرضها يقارب ثلاثين سنتيمترًا ..

وكان الإصبع الأكبر أطول بمراحل من أربعة الأصابع الأخرى .. مما يدل على أن طول الكائن يقترب من الثلاثة أمتار ..

الأكثر أهمية هنا هو أن الجليد مستمر فى السقوط .. ومعنى هذا أن آثار الأقدام هذه طازجة تمامًا ..

لقد كان هذا الشيء هنا منذ ساعة لا أكثر ..

وللمرة الأولى أخرجت من جعبتى (الكاميرا) التى أعطانى إياها د. (رفعت إسماعيل) قبل السفر ، وللمرة الأولى ـ كذلك ـ أخرج البروفسير النرويجى بندقيته وتأكد من سلامة حشوها ..

التقطت بعض الصور لآثار الأقدام بمعونة المرأة التى لاحظت عدم درايتى باستعمال هذه الآلة العجيبة ..

ثم أننى التفت نحو البروفسير .. وقلت له :

ـ والآن يا سيدى .. بدأ أخطر جزء من الرحلة ..

* * *

لم أكد أنهى جملتى حتى فتح باب من أبواب الجحيم ..

فى البدء ظننته انهيارًا جليديًا ، فقد احتجبت الشمس الباهتة لبضع ثوان .. ثم رأيت شيئًا عملاقًا يثب من أعلى علينا .. وتبينت ما هو للمرة الأولى فى حياتى ..

كان طوله يبلغ الثلاثة أمتار حقًا وجسده مغطى بالشعر الأشهب المشرب بالحمرة ..

وكان الشعر منتفشا مما يوحى بهياجه ..

وعلى كتفيه يستقر أبشع وجه رأيته فى حياتى ، لكنه لم يكن وجه إنسان ولا قرد .. بل هو كتلة مبهمة بلا ملامح ..

الشيء الوحيد المألوف فى ذلك الوجه كان الفم .. الفتحة الفاغرة عن صفين من الأنياب الحادة اللامعة المتربصة ..

وكان يقف على قدميه ، ويستعمل ذراعين طويلتين مرعبتين كما يستعملها البشر ..

ولمحته يرفع البروفسير ثم يقذفه على بعد أمتار فوق الثلوج ليتكور هناك منطويًا على نفسه .. ثم إنه جرّ (نورا) من شعرها فسقطت عند قدميه مغشيًا عليها ..

لا وقت لطقوس الـ (نافاراى) .. لهذا تهيأت للوثوب لأوجه ركلة إلى مقتل هذا الشيء إن كان له مقاتل ..

وهنا شعرت بأننى أرتفع عن الأرض ..

وأدركت أن واحدًا آخر جاء من خلفى وهو يزمجر ، ورفعنى من مؤخرة عنقى إلى أعلى كأنه يرفع أرنبًا من جحره ..

وشعرت بنفسى أطير فى الهواء لأرتطم بحافة الجرف الصخرى ..

لا .. لن أفقد الوعي .. لا وقت لهذا ..

وحين فتحت عيني كان هناك أربعة من الـ (مى - جى) يتسلون بقذف جسد البروفسير ما بين بعضهم البعض ..

نهضت محاولاً إنقاذ الموقف ، فوجدتني كالقزم بين أربعة جبال ..

حتى الـ (نافاراى) يملك حدودًا لا يستطيع تجاوزها ..

وقبل أن أفهم شيئًا ، كان جسدي يتطاير في الهواء ليصطدم رأسي بالجليد الصلب من جديد ..

وآخر ما أذكره هو صوت الزئير المفزع والصراخ .. و ..

* * *

ظلام ...!

الظلام البكر من قبل أن يُوجد الضوء ..

* * *

وحين أفقت أخيرًا كان رأسي يدق كصندوق مليء بالبلى المعدني .. وكنت أشعر بالغثيان والدوار وأشياء أخرى لا أعرفها ..

وأمامي كان مسرح المأساة غارقًا في الفوضى .. الثلج متناثر هنا وهناك وغطاء رأس (نورا) وجاكت البروفسير المصنوع من الفراء وبندقيته .. وكاميرا (رفعت) قد هشمت تمامًا (من مصلحتي ألا أعود له حيًا إذن) .. لكن لا أحشاء في أي مكان لحسن الحظ ..

لقد رحل الـ (مى - جى) حاملين فريستيهم ..

أما لماذا لم يأخذوني أنا ، فأعتقد أن التفسير واضح .. هم اعتادوا مذاق الصُفر ويريدون أن يجربوا مذاق البيض ذوي الشعر الأشقر .. كما ترحب أنت بالتهام لحم غزال بعد ما سئمت مذاق لحم الدجاج ..

كنت أعرف أن هذا سيحدث ..

لا أدري ما إذا كان البروفسير والمرأة حيين الآن أم لا .. لكني لن أرحل دون أن أعود بهما ، أو أدفن جثتيهما ..

لقد صرت وحيدًا تمامًا ..

ومن يدري ..؟

ربما كان هذا أفضل ..

* * *

٤ ـ لحظة الحقيقة ..!

صرت الآن وحيدًا ..
لكنى أعرف تمامًا ما سأفعله وكيف أفعله ..

★ ★ ★

بدأت السير وئيدًا متتبعًا آثار الأقدام المبعثرة بين الثلوج .. أتعثر تارة وأنهض تارة ..

أبدو لمن يرانى وكأنى أتحرك فى فيلم بالسرعة البطيئة .. خطواتى ثقيلة وإخراج قدمى من الثلوج يقتضى مجهودًا غير عادى ..

لكننى مستمر فى التقدم ......

وهنا وجدت وسط الجليد حذاءً مألوفًا .. حذاء (نورا) بالذات .. وأدركت أن هذا هو المكان المختار ..

نظرت لأعلى أتأمل الجدار الجليدى الشاهق الذى يحيط بالمكان .. فوجدت شيئًا آخر أكثر دلالة .. ملفحة (نورا) ممزقة ترفرف كراية صفراء متدلية من إحدى الصخور المدببة ..

مددت عينى أتحسس الجدار ، فوجدت ثغرة وسط الجليد لا بد أنها تؤدى إلى كهف ..

مددت يدى إلى جربندیتی ، وتناولت حبلًا سميكًا من النايلون وصنعت أنشوطة .. وأحكمت التصويب قاذفًا حلقة الأنشوطة إلى أعلى لتتشبث بإحدى الصخور البارزة من الجدار ، وجذبته مرارًا لأتأكد من أنه سيتحملنى .. وللتأكيد ربطته فى خاصرتى ..

قد يقول قائل : لم لا ترتفع لأعلى ما دمت (نافاراى) ؟

بالطبع لا .. ليس إلى هذا الحد .. أحتاج إلى حالة تركيز عالية تنهكنى إلى حد غير عادى ، وأنا الآن بحاجة إلى صفاء ذهنى من أجل أغراض أخرى ..

قد يقول قائل آخر : كيف صعد (الياتى) إلى هناك ؟

أقول له إن هذه هى مشكلة (الياتى) وليست مشكلتى .. تستطيع أن تسأله إذا أردت !..

دعونى الآن أواصل التسلق ولا تشتتونى بالأسئلة السخيفة التى لا طائل من ورائها ..

★ ★ ★

وصلت إلى فتحة الكهف ..

مددت يدى إلى (الجربندية) وأخرجت الشىء الذى أخفيته طيلة سفرى جوار كتاب (الشوكارا) الملتف حول خصرى ..

كان هذا الشىء هو قارورة الشراب الذى كان الأخ (ميانج) يقدمه للـ (مى - جى) لتهدئته ..

لقد قرأت طريقة إعداده بعناية من كتاب (الشوكارا) ، وقمت بإعداده من الأعشاب فى أثناء توقفنا فى (لهاسا) بحثًا عن أدلة لرحلتنا ..

سيكون هذا هو ورقتى الرابحة ..

لا جدوى من أساليب الـ (نافاراى)، لأن الـ (مى - جى) أقوى .. ولأن عددهم سيكون كبيرًا ، ولا جدوى من البندقية لأنها لن تفعل شيئًا .. ربما تقتل واحدًا أو اثنين قبل أن ينتزعوها منى ويحطموها فوق رأسى ..

إذن سياسة الوفاق هى المثلى ..

أخرجت كذلك ورقة تحوى بعض العبارات بلغة قبائل (أمادواس) التبتية ..

من الصعب أن أتخيل أن الـ (ياتى) يذكرون هذه العبارات .. لكنى آمل فى أن قبائل (أمادواس) لم تزل موجودة وتتعامل معهم منعشة ذاكرتهم من حين لآخر ..

ولما حفظت العبارات عن ظهر قلب استعددت لدخول الكهف ..

وفجأة ..

شعرت بيد مشعرة ترفعنى فى الهواء وتقذفنى لأسفل ..

* * *

تشبثت بالصخور بيد واحدة محاولًا ألا أترك الزجاجة ..

وهنا توقفت عن الهبوط لأسفل ، فأدركت أن السبب هو أننى نسيت الحبل مربوطًا لخصرى فظللت متدليًا منه أتأرجح فى الهواء البارد .. وللحظة تجمع كل الدم فى قدمىَّ فاسودت الدنيا فى وجهى ..

رفعت عينى فرأيته واقفًا هناك يرمقنى من علٍ ..

كان عملاقًا مهيبًا .. غاضبًا إلى حدٍّ مروع .. يعابث خصلات شعره الكث ويكشر عن أنيابه ..

لو أنه مدّ يده وانتزع الحبل من مكانه لهويت كالصخرة إلى أسفل ..

ولكن هناك مشكلة بسيطة : كيف أعود للصعود ؟ وكيف أنزل إذا أردت ؟..

وكان الجواب سريعًا .. إذ وجدت أحد الـ (مى - جى) يتقدم عبر الجدار الصخرى المغطى بالثلوج وقد ثبت جسده إليه .. يتقدم نحوى على المستوى الذى تدلى جسدى عنده !

كان منظره عجيبًا وهو يتقدم كأنه يتحرك بممصات خفية ، أو كأنه سحلية تمشى فوق جدار أملس .. كيف يتشبث ؟.. لا أدرى ..

لكن الحقيقة هى أنه آت نحوى بسلاسة غير عادية ..



شرعت أتملص منه وأبعد قدمىّ .. حتى إذا وجدت اللحظة مناسبة وجهت ركلة بحذاء التسلق المملوء بالمسامير إلى وجهه ..

لن يلبث سوى دقيقة واحدة - بل أقل - ويلف ذراعه المشعر الغليظ حول خصرى .. وعندئذ ..

تسلقت الحبل سريعًا إلى أن بلغت مستوى أعلى منه .. ولم أجرؤ على الارتفاع أكثر حتى لا أغدو فى متناول الآخر ..

هذه المرة كان الـ (مى - جى) - السحلية - تحت مستوى قدمىّ ..

وسمعت زنيره ، وشعرت بيده تتطاير عشوائيًا فى الهواء محاولة الإمساك بأى طرف منى .. لكنه أحمق إذا ظن أنه يستطيع الإمساك بكاهن (تافاراى) !

شرعت أتملص منه وأبعد قدمىّ .. حتى إذا وجدت اللحظة مناسبة وجهت ركلة بحذاء التسلق المملوء بالمسامير إلى وجهه ..

فدوت صرخته المريعة المفعمة بالألم ..

الثلوج تنهار فوق رأسى ورأسه من أعلى ..

ولمحته يفقد توازنه ويسقط لأسفل ، لكنى أدركت أن شيطانًا كهذا لا يمكن أن يموت بهذه البساطة ..

ولمحت آخرين يزحفون نحوى بنفس الطريقة فأدركت أننى فى مأزق حقيقى ..

لذا واصلت التسلق إلى أن وجدت الـ (مى - جى)

الأول يرمقنى بوجهه المرعب من أعلى بانتظار وصولى إليه ليحطم عنقى ..

كنت عند قدميه تقريبًا وأنا أحتضن الزجاجة فى توتر ..

والآن حان وقت الـ (نافاراى) ..

قلت له وأنا متدلٍّ من الحبل وبلهجة متعجلة :

ـ تشا سارايانا !.. جيانغ سارايانا !.. كيو سارايانا !

كنت أعرف أن الإنذار تحصيل حاصل ، لكن التقاليد ترغمنى على ذلك ..

ثم إننى لويت جسدى لأعلى ـ وأنا متشبث بالحبل ـ ورفعت قدمىَّ فى الهواء بنصف دورة .. لترتطما بجسده فى إحدى نقاط الـ (كورا) ـ إذا كان يملك بعضها ..

سمعته يصرخ .. ومزيد من الثلج يهوى من أعلى ..

ثم تنحى معطيًا إياى الفرصة لأقف على قدمىَّ ..

وحين وقفت أخيرًا أمامه على باب الكهف ، هالتنى ضخامته .. والأشياء المفزعة التى يمكنه أن يصنعها بى لو أمسكنى ..

كان يدنو منى ببطء وهو يخور ..

رفعت يدى اليمنى ـ كما فعل الأخ (ميانغ) منذ خمسة قرون ـ وهتفت بأعلى صوتى :

ـ سوان شيهاه مى ـ جى !

كان مصرًا على إيذائى .. ما زال يتقدم ببطء مريع ..

ـ سوان شيهاه مى ـ جى !

الكلمة التى كان الأخ (ميانج) يرددها أمام الكهف ، ومعناها ـ كما علمت فيما بعد ـ هو (لقد جئت بالسلام أيها الـ (مى ـ جى) ..

ترى هل يفهم معنى ذلك ؟

لحظات من التوتر .. لقد صار على بعد نصف متر منى .. وبعد ثوان سيكون علىَّ أن أثب بعيدًا عنه ..

لكنه بدأ يهدأ .. ثبت فى مكانه وكف عن الخوار ..

تبادلنا النظرات لثوان .. ثم إننى اتجهت لباب الكهف متجاهلًا إياه ، ورفعت كفى اليمنى مبسوطة وانحنيت مرددًا ذات العبارة ..

ثم دخلت ..

* * *

كان الظلام دامسًا بالداخل ..

لكننى ـ هذه المرة ـ كنت قادرًا على تبين عشيرة كاملة من هذه المخلوقات جالسة فى الظلام تتأملنى ..

دنوت من وسط الدائرة ووضعت الزجاجة على الأرض .. ثم رفعت عينى وهتفت باسطًا كفى اليمنى :

ـ يا هاتشو أوزوم مى ـ جى !

أى - كما تذكرون - (لقد بررت بوعدى أيها الـ (مى - جى) ..

وكان ردّ الفعل سريعًا .. لقد ساد الهدوء بالمكان وتلاشي التوتر ..

ورأيت أحد هذه المخلوقات يقترب مِن الزجاجة ليرى ما هنالك ..

وهنا حدث شيء غريب ..

وجدت البروفسير و (نورا) ورجل ثالث لا أعرفه يهرعون نحوى من بين صفوف الـ (مى - جى) .. لم تكن حالهم سيئة إلى الحدّ الذى توقعته - فيما عدا الأول طبعًا - ومن الغريب أن الكائنات لم تعترض طريقهم ..

- (نورا) .. بروفسير .. ما معنى هذا ؟

هتف البروفسير وهو يلفّ ذراعه حول (نورا) :

- إنهم لم يؤذونا يا بنىّ .. لم يؤذونا .. لقد احتفظوا بنا هنا بينهم وأطعمونا وآوونا ..

- ومن هذا الثالث ؟

نظر لى الرجل الذى كان معهما .. وغمغم :

- أنا (هانسن) الوحيد الباقى من المستكشفين الثلاثة .. لقد هاجموا مخيمنا واختطفونا .. لكنهم لم يؤذوا أحدًا سوى (أنسلن) الذى جرح ذراعه ، وقد حملونا إلى هنا وأطعمونا وآوونا .. لكنهم لم يغفروا لنا محاولة الهرب حين حاولها (أنسلن) و (سيجفريد) ..

كان العقاب سريعًا وصارمًا .. ونهائيًا !!

لم أسأله عن المزيد لأن الزوجة تقف جواره ، وأنا أعرف جيدًا أنهم قتلوا (أنسلن) (كأرنب برى) .. هو قال لى ذلك في الرؤيا التى رأيتها ..

لا وقت للأسئلة .. لا وقت لمعرفة سبب إبقاء الـ (مى - جى) على كل هؤلاء النرويجيين أحياء .. ولكن الإجابة واضحة ولا إجابة سواها ..

إن هذه الوحوش ظلت غير قادرة على فهم هذه القرود الصغيرة ، ذات البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعور الصفراء ، لهذا أبقتها حية إلى أن تعرف ما ينبغى عمله بها ..

إن الـ (مى - جى) يحاصروننا فهل أستطيع أن أتجاسر وآخذ النرويجيين معى ما دمت قد أثبت حسن نيتى ؟

حقًا لا أدرى ..

إن أية حركة مريبة ستجعلهم يمزقوننا إربًا ، ولديهم سوابق على سوء معاملة من يحاول الفرار ..

وهنا جاء الحلّ الصحيح ..

الزجاجة !.. لقد نسيت الزجاجة ..

ولمحت واحدًا منهم يتقدم وهو يخور ليمسكها .. يتحسسها بين كفيه ، ثم يرفعها لفمه ويزيل غطاءها ويجرع ..

ثم إنه ناولها لواحد آخر .. فواحد آخر ..

همس البروفسير فى حيرة وهو يتأمل المشهد :

ـ ماذا يحتسون بالضبط ؟

ـ (شراب النجوم) .. هكذا يسميه رهبان (التبت) ..

نظر لى هنيهة ولم يعلق ..

كان الـ (مى ـ جى) يتبادلون احتساء المشروب ، وقد أدركت أنه راق لهم إلى حد غير عادى .. لا أفهم سبب ذلك ، لكنه حدث .. وفهمت الآن فقط أى سحر كان الأخ (ميانج) يضعه فى شرابه هذا ..

لقد بدأ جو من الهموم يسود المكان تتخلله زمجرات قصيرة ..

فنظرت إلى النرويجيين الثلاثة المذهولين .. وهمست :

ـ يمكننا أن نرحل !

هتف النرويجى الجديد ـ الذى نسيت اسمه ـ فى توجس :

ـ سيقتفون أثرنا !

ـ ليس بعد الآن .. إن أمامنا أيامًا من السلام وثق بأننى أعرف ما أقول ..

وببطء وحذر غادرنا الكهف فلم يعترض طريقنا أحد ..

وبدأنا عملية الهبوط لأسفل مستخدمين الحبال ، عالمين أن الأهوال تنتظرنا فى رحلة العودة ..

لكننا ـ على الأقل ـ عرفنا مصير من فقدوا ..

وأنقذنا واحدًا من المستكشفين ..

وسيكون لدى البروفسير الكثير مما يقصه على المجامع العلمية حين يعود لوطنه ..

إن رحلة العودة شاقة .. لكنها ـ على الأقل ـ ستتم دون أن يعترض الـ (مى ـ جى) طريقنا أو يقفو آثارنا ..

وهذا يكفى ..

* * *

وداعًا أيها الـ (نافاراى) ..

* * *

خاتمـة

بقلم : د. (رفعت إسماعيل)

كانت هذه صياغتى لخطاب طويل وصلنى من (الصين) بخطٍّ (هن ـ تشو ـ كان) ، وبلغة إنجليزية لا بأس بها ، واضح أن تعامله مع النرويجيين جعله يصمم على إجادة الإنجليزية ، ولربما هو عاكف على تعلم النرويجية الآن ..!

لقد قابل (هن ـ تشو ـ كان) رجل الثلوج ، وعاش قصة طويلة معه .. لكن للأسف تظل قصته مجرد قصة أخرى كقصص (شيسون) و (هيلارى) و (هنـريك ألواس) .. غير مدعمة بصور ولا نماذج محتطة للـ (مى ـ جى) ، ولا شيء من أى نوع سوى شهادة البروفسير والزوجة ـ أعنى الأرملة ـ والمستكشف (هانسن) ..

لكن (هن ـ تشو ـ كان) لا يعبأ بكل هذا ولا يصبو إلى أى نوع من الشهرة .. كان يشعر بقدرته على إنقاذ (أنسلن) .. وقد فعل ..

من أين جاء الـ (مى ـ جى) ؟..

لا أحد يدرى ..

لكن تظل هناك إشارة عابرة من الأخ (ميانج) إلى السماء حين سأله الفتى نفس السؤال ، ثم الاسم الموحى للشراب الذى قدموه للوحوش (شراب النجوم) ..

أضف إلى ذلك النظرية التى يعتنقها عدد لا بأس به من العلماء ، وأن (اليانى) جاء من الفضاء .. وبالتحديد من أحد الكوكبين (بلوتو) أو (أورانوس) ، حيث المناخ وضغط الأكسجين يماثل تمامًا مناخ (التبت) وضغط هوائه المنخفض ..

هى نظرية لها ما يدعمها ..

وكيف جاء ؟.. لا أحد يعلم ..

إن التاريخ حديث الولادة ، فهو لا يسجل شيئًا عن شعوب كاملة عاشت دهورًا وبادت .. فماذا يعرف التاريخ عن الظروف التى نشأ فيها الـ (مى ـ جى) من ملايين السنين ؟!

لا أظن أننا سنعرف الإجابة أبدًا ..

كل ما يعنينى ، هو أننى أضفت إلى خبراتى خبرة جديدة لا بأس بها أبدًا ، وإن كنت أتمنى لو أن لدىّ من الشجاعة واللياقة البدنية ، ما يسمح لى بالذهاب هناك ، إلى ثلوج (التبت) لأرتدى حذاء التسلق ، وأمارس حياة المغامرة كما فعل هؤلاء ..

لقد أدركت مدى عجزى وضمورى ، وأنا أقرأ ما فعله (هن ـ تشو ـ كان) ، حين حوصر فى الهواء بين ستة من الـ (مى ـ جى) .. فكلما قرأت هذه الفقرة ارتجفت وازداد سعالى ، وازداد شعورى بالتعاسة ..

لكن يعزينى أننى لم أكن دائمًا هذا الكهل المحطم ..

لقد واجهت وحش (لوخ نس) ، وذهبت لحملة فى الصحراء بحثًا عن كهوف (تسيلى) ، وفررت هاربًا من (الزومبى) ..

لقد عشت حياة حافلة .. ولم تزل أحداث جسام تنتظرنى ..

والآن حان الوقت كى ..

أسمعكم تسألوننى عما حدث لـ (هن ـ تشو ـ كان) ؟..

حسن .. إنه لم يعد بعد .. ويبدو لى أنه سيظل فى (التبت) فترة طويلة ، لكنه سيعود حتمًا كما قال .. وعندئذ ستكون لنا لقاءات أخرى وأساطير جديدة ..

والآن حان الوقت كى أفارقكم ..

و ... للأسف لم يذكرنى أحدكم بإصلاح (فريزر) ثلاجتى .. لا داعى لذلك ، فقد أصلحته ، وإننى لشاكر لكم حسن رعايتكم لى !

كنت أظن أننى سأعيش فترة هادئة بعيدًا عن المشاكل ، خاصة وأن الكاهن الأخير تكفل فى هذه المرة بأن يعيش المشاكل بدلًا منى ..

لكنى كنت ـ كالعادة ـ واهمًا ..

لقد رحل (هن ـ تشو ـ كان) ولم يعد معى سواى ..

والنبات كان يتحرك قادمًا من أجلى ..

لكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

(القاهرة ـ ١٩٩٣)

* * *

[تمت بحمد الله]